الإنساني 40

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر

غير مخصصة للبيع | العدد الأربعون | خريف 2007

مخيم نهر البارد: آلام اللجوء وأحلام العودة

الإنساني 40 عددًا
على طريق النضوج

حماية المدنيين أثناء النزاعات المسلحة وتمييزهم عن العسكريين
هدف أساسي للبروتوكولين الإضافيين إلى اتفاقيات جنيف

ICRC

يحتفل العالم هذه السنة بالذكرى الثلاثين
لاعتماد البروتوكولين الإضافيين إلى اتفاقية
جنيف في العام 1977

كاريكاتور

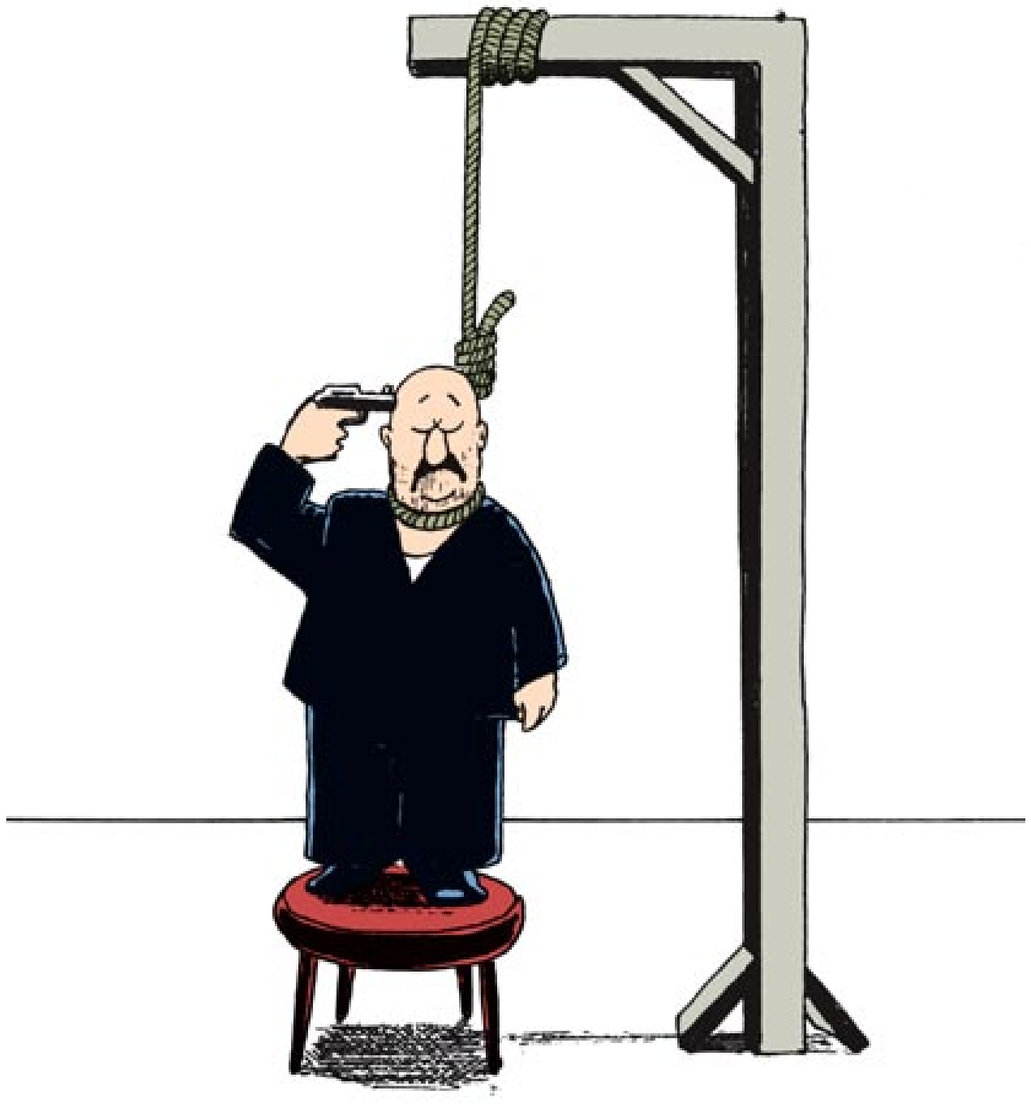

الكاريكاتور: **عبد الرحمن عجور**، مصر (1950 – 1998)

عالم اختلطت فيه المفاهيم

صيف حار آخر عصف بالمنطقة من فلسطين إلى العراق مرورًا بلبنان، وكأنه مكتوب على شعوبها ألا تجلس على الشاطئ يومًا.

عام مر على الصيف الحار الذي هز لبنان في 2006.

سنة عصيبة تمر على الفلسطينيين.

العراق انتقل إلى مستوى آخر من العنف.

بينما يتساءل أهل دارفور عما ينتظرهم.

لكن، وبين الانفجارات والنار والخطف، نجح المنتخب العراقي لكرة القدم في الحصول على لقب بطل آسيا. فهو بالفعل بطل. بطل لتجاوزه ظروف بلده ولحمله أمل العراق بحياة عادية، حياة يلعب فيها العراقيون الكرة. هو بطل لتحقيقه هذا الحلم.

ما المشكلة –نتساءل– في أن يلعب الأطفال في الشارع وفي أن يذهبوا إلى المدرسة وفي أن يتلقى المريض علاجه حتى في بلد تلتهمه النيران؟ أفلا ينص القانون والعرف والأخلاق وحتى الدين على إبعاد الحرب عن التفاصيل اليومية؟

لكن حين يفتقر 70٪ من العراقيين إلى المياه النظيفة، بينما لا يحصل 30٪ من أطفال العراق على كفايتهم من الطعام، كيف لهم أن يلعبوا كرة القدم في شارع أصبحوا غير قادرين على أن ينزلوا إليه دون حبس أنفاسهم خوفًا على حياتهم؟. التقرير الذي أطلقته منظمة "أوكسفام" بالتعاون مع عدد من المنظمات العراقية غير الحكومية يطرح من جديد السؤال: من يحمي العراقيين؟

نعجب لعالم اختلطت فيه المفاهيم تمامًا واندثرت فيه آخر مسحة خجل من قبل السياسيين تجاه الناس. فالمحادثات والسجالات والاقتراحات والمبادرات – التي سنفترض فيها حسن النية حتى اللحظة الأخيرة– لا تنتهي. كلها باسم الوطن والشعوب والحقوق. ولكن أين هي هذه الحقوق من العجوز العالق على الجانب المصري من مدينة رفح، وهمه الوحيد البقاء على قيد الحياة فقط كي يموت في بيته في غزة، ويدفنه أهله تحت شجرة الزيتون؟ وأين هي السياسة من العراقي المتمسك بواجبه كمدرّس في بلد أصبح 92٪ من أطفاله يواجهون مشاكل في التعليم؟

نعجب لعالم تكاثرت فيه المعلومات لكن انعدمت فيه قيمة الصحافي الذي يعطي المعلومة...ففي قراءة لتقرير منظمة "مراسلون بلا حدود" نرى أن العام 2006 كان الأسوأ على الصحافيين منذ العام 1994، عام مجزرة رواندا. فبالإضافة إلى مصرع 81 صحافيا في العام 2006 (أغلبهم خلال عملهم في بؤر توتر)، قتل أيضا أكثر من ثلاثين من مرافقي الصحافيين (كمترجميهم أو سائقيهم).

صيف آخر نطرح فيه أسئلتنا المعتادة في اللجنة الدولية للصليب الأحمر: كيف سيكون العام المقبل؟ وما هي الأولويات التي ينبغي أن نضعها في خطتنا السنوية؟ مضى على تواجد اللجنة الدولية في الشرق الأوسط أربعون عامًا دون توقف، تواصل مهمتها بشكل – للأسف– متزايد عامًا بعد عام. فبقدر فخرنا بمنظمتنا وبالقانون السامي الذي يديرها، وهو القانون الدولي الإنساني المتمثل باتفاقيات جنيف وما حولها، بقدر ما نتمنى أن ينخفض مستوى تواجدنا وتتقلص عملياتنا، إذ إن ذلك سيكون نتيجة لتحسن في الأوضاع فينعكس تناقصا في حاجة الناس إلى المنظمات الإنسانية. لكننا نخشى اليوم أن يكون تخفيض عدد العاملين في المجال الإنساني عمومًا دليلا على تزايد المخاطر التي يواجهها هؤلاء العاملون وليس العكس. كيف لا ونحن نشاهد ما جرى لعمال الإغاثة الكوريين في أفغانستان؟

الصيف كان حارًا وهكذا يبدو الخريف. لكن المدنيين ومنهم الصحافيون والعاملون في الإغاثة متمسكون بحياتهم ومهمتهم بالرغم من الانتهاك الصارخ للكثير من حقوقهم ●

"الإنساني"

الإنساني

تصدر كل ثلاثة شهور عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

رئيس التحرير **تمارا الرفاعي**

مدير التحرير **زينب غصن**

المستشار القانوني **د.عامر الزمالي**

مستشارا التحرير **محمد بن أحمد**
سيباستيان كارليه

المراسلات : 31 شارع جدة، حي المهندسين، القاهرة 12311
تليفون 37619332 • 33379282 فاكس 37618487
البريد الإلكتروني: csc.cai@icrc.org

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

الاشراف الفني **محيي الدين اللباد**

ICRC

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

مخيم نهر البارد: آلام اللجوء وأحلام العودة

في بداية سبتمبر/أيلول الماضي توقف، بعد حوالي الأربعة أشهر، القتال بين جماعة «فتح الإسلام»، إحدى الحركات الراديكالية في مخيم نهر البارد شمال لبنان، والجيش اللبناني. وقد أدى هذا القتال إلى نزوح آلاف السكان المدنيين في المخيم وانتقالهم إلى مخيم البداوي المجاور وبعض المخيمات الفلسطينية الأخرى. وقد دفعت الحالة السيئة التي يعيش فيها النازحون اللجنة الدولية للصليب الأحمر وغيرها من الجمعيات الأهلية إلى التحرك لنجدة المدنيين. وهؤلاء هم جزء من 350 ألف لاجئ فلسطيني يقيمون في لبنان منذ أن نزحوا عن قراهم ومدنهم الفلسطينية أول مرة في العام 1948... بعضهم روى قصة نزوحه عن مخيم نهر البارد ورآها انعكاسا وتكرارا لمأساة الماضي. •••

AFP

40
خريف 2007

REUTERS

مخيم نهر البارد (ملف)

آلام اللجوء وأحلام العودة ..... سمر القاضي 04
مسعفان طويا عمرهما في خدمة الإنسان ..... أياد المنذر 07
مصير الدور الاجتماعي والاقتصادي لمخيم نهر البارد ..... مايكل رومغ 08
اللجنة الدولية والتخفيف من آلام النازحين 10
غزة: سجن هائل يخفي أزمة إنسانية 11
«تأملات من غزة»: الحب والكبرياء ونادي القتال ..... هبة 13
أنت، منذ الآن، غيرك! ..... محمود درويش 17
قصة معابر ثلاثة ومأساة الانتظار ..... زياد أبو لبن 18
حلم بسيط بعد سنة على حرب هائلة ..... جهاد بزّي 20
الأمير مرعد الحسين: حل مشكلة الألغام واتفاقية أوتاوا رباب الرفاعي 22
الحاجة لمعاهدات دولية تحمي الصحافيين ..... داود كتّاب 24
فجأة تجد نفسك حرا لكنك لست مهيأ لذلك ..... برايان كينان 26
ثلاثون عاما...قانون الحرب يصمد أمام امتحان الزمن فيليب سبيري 28
الإنساني 40 عددا على طريق النضوج ..... تمارا الرفاعي 30
البيئة: عامل إشعال لحروب المستقبل؟ ..... زينب غصن 32
النسيج الاجتماعي– الاقتصادي محركا للصراع في دارفور؟ عبد الله آدم خاطر 36
الصورة والتأسيس لميثولوجيا جديدة للموت ..... الهادي خليل 38
نصير شمّة يروي أحزان العراق بالموسيقى ..... زينب غصن 42
جرائم الحرب في طبعته الثانية كيم غوردن – بايتس رجا شحادة 46
شعر: قصائد حرب ..... عبده وازن 48
أركان العالم 50
جروح في شجر النخيل ..... أمين معلوف 53
بلا رتوش قبلة قبل الموت ..... أسماء محمد مصطفى 54

منذ خروجهم الجماعي الأول إلى البلدان المجاورة في الأردن وسوريا ولبنان عند تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948 والفلسطينيون في نزوح متكرر. في لبنان كان عليهم أن يتحملوا، مثلهم مثل اللبنانيين، وطأة العنف وأن يعانوا من تبعات النزاعات المسلحة والقلاقل على مدى 15 عاما من النزاع الأهلي منذ العام 1975 وحتى 1990. مرة أخرى تستعاد القصة نفسها ويتعرض الفلسطينيون لوضع مشابه مع اندلاع القتال شمالي لبنان في العشرين من مايو/أيار الماضي بين الجيش اللبناني ومقاتلي جماعة فتح الإسلام في مخيم للاجئين الفلسطينيين في نهر البارد. ويفر آلاف المدنيين من المخيم طالبين اللجوء في مخيم البدّاوي المجاور، وهو مخيم لا تزيد مساحته على كيلومتر مربع واحد بينما يضم أصلا 18 ألفا من اللاجئين الفلسطينيين.

ويعلق الدكتور **يوسف الأسعد**، مدير "مستشفى صفد" الذي يديره الهلال الأحمر الفلسطيني في مخيم البداوي، على الوضع قائلا: "**لدينا الآن مخيمان مدمجان في مخيم واحد**". وتقاسم ما يزيد على 20 ألفا من النازحين من نهر البارد مع سكان مخيم البداوي الأصليين مساحته الضيقة.

سُكّن اللاجئون الجدد في ثلاث مدارس تديرها "وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى" (الأونروا) وفي رياض الأطفال والنوادي وبعض الجوامع. وفي حالات عدة، تقاسم حوالي أربعين شخصا أحد فصول المدرسة الذي لا تزيد مساحته على خمسة أمتار مربعة. يقول **جمال جواد** مدير مدرسة الكوكب التابعة للأونروا أن "**ثمة 160 عائلة أي ما يساوي 950 شخصا يتقاسمون 24 فصلا، وبالتالي يكدس ستون شخصا في بعض الأحيان في غرفة واحدة، والظروف الإنسانية التي يعيشون في ظلها صعبة للغاية ومحزنة**". ويضيف قائلا: "**نحن نقوم بمتابعة دائمة لمعالجة أية أمراض صحية معدية مثل الجرب والقمل حيث يمكن أن تظهر الأوبئة بسهولة في ظل تكدس هذا العدد الهائل من الأشخاص في مكان واحد**".

سمر القاضي*

اللجوء مضاعفا

يتطلع لاجئو نهر البارد إلى العودة إلى "ديارهم" التي ما هي إلا مخيم للاجئين. لاجئ للمرة الثانية...تلك هي محنة **أبي هشام** البالغ من العمر 87 عاما ومحنة العديد من قاطني نهر البارد. المرة الأولى كانت وهو مراهق، حين هرب مع أسرته من بلدته الأم "الناصرة" في أواخر الأربعينيات. ويتذكر **أبو هشام** هذا الوقت قائلا: "**مشينا الطريق كله إلى بنت جبيل (جنوب لبنان) وأنا أحمل ابن أخي الصغير بين ذراعي**". ولكن هذه المرة لم يكن على **أبي هشام** أن يسير لمسافات طويلة حيث أجلي النازحون من أمام مدخل نهر البارد ونقلوا في أوتوبيسات وعربات إسعاف تابعة للصليب الأحمر اللبناني إلى مخيم البداوي.

AFP

نازحون فلسطينيون يحملون ما خف وزنه هاربين من المعارك في مخيم نهر البارد

ICRC

فريق من اللجنة الدولية للصليب الأحمر يوزع مساعدات غذائية على النازحين في البداوية

"إلى متى ستظل المصائب تنهال على الشعب الفلسطيني.... وكم من المرات كتب علينا أن ننزح من مكان لمكان؟" يتساءل الرجل العجوز الأشيب وهو جالس ومن حوله أولاده وأحفاده، النازحون أيضا. ويتذكر **أبو هشام** أن اللاجئين سكنوا في نهر البارد في أوائل الخمسينيات في خيام مؤقتة تأسست على قطعة صغيرة من الأرض الخالية. يقول: "**من الخيام انتقلنا إلى أكواخ ثم منها إلى منازل صلبة بنيت بشكل عشوائي دون أي تخطيط... والآن سنعود للسكن من جديد في الخيام**".

انتظار العودة "الثانية"

قتال أربعة أشهر دمر مخيم نهر البارد الذي كان يأوي حوالي 31 ألفا من اللاجئين الفلسطينيين، على نحو كبير وسويت بعض أجزائه بالأرض. وعلى الرغم من أن النازحين إلى مخيم البداوي لا يأملون كثيرا في أن تكون مناطق سكنهم سليمة أو قائمة إلا أنهم يرغبون في العودة إلى ديارهم. يقول **أبو هشام**: "**أن يكون المرء لاجئا ليس بالأمر اليسير. فنحن نفضل العودة إلى المخيم والسكن في خيمة على أنقاض منزلنا على أن نحشر في مراكز إيواء النازحين**".

إن المحنة التي ألمت بلاجئي نهر البارد مثال آخر على الأزمات الإنسانية التي تسببها النزاعات المسلحة والعنف الذي يتحمل المدنيون وطأته الكبرى. يقول **أبو حسان**، ذو الستة والثمانين عامًا والعائل لأسرة مكونة من 16 شخصا، أنه يفضل أن يموت تحت الأنقاض على أن يعيش في هوان وهو يستجدي الحصول على مأوى كريم. ويضيف: "**نحن مدنيون مسالمون ولا نلعب دورا في الحرب... ومع ذلك، فنحن الضحايا... نحن الذين ندفع الثمن**". ومع فقدان مصدر معيشته وتدمير منزله، ضاع مجهود 60 عامًا من العمل الشاق. ولا يملك **أبو حسان** خيارا آخر إلا أن "ينتظر" إلى أن يتمكن من العودة.

حتى اللاجئون لهم أحلام، وذلك بالرغم من صعوبة ظروفهم المعيشية في مخيمات لبنان التي أصبحت "وطنهم الوحيد" على مدى خمسة عقود بعد أن كان يفترض بها أن تكون مؤقتة. يقول **محمد** الذي يقضي أيامه يستمع إلى الأخبار ويبحث عن بصيص أمل في العودة: "**المرء يعيش على الأحلام حتى لو كان يعيش في كوخ... لكن حتى ذلك الكوخ دمّر**" ●

(*) مسؤولة الإعلام في اللجنة الدولية في بيروت

هيثم سليمان

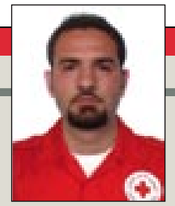

بولس معماري

مسعفان طويا عمرهما في خدمة الإنسان

في الحادي عشر من يونيو/حزيران الماضي، وفيما كان المسعفان الشابان في "الصليب الأحمر اللبناني"، بولس معماري وهيثم سليمان يقومان بأعمال الإغاثة على تخوم مخيم نهر البارد، وأثناء تبادل للنيران أصابتهما قذيفة فانضما إلى قافلة شهداء الواجب والعمل الإنساني الذين سقطوا في صفوف الصليب الأحمر اللبناني، في خلال أكثر من عدوان أو هزة أمنية تعرض لها لبنان.

كان بولس وهيثم قد قضيا العشرين يومًا الأخيرة من حياتهما يسعفان الجرحى ويساعدان أهالي مخيم نهر البارد في نزوحهم عن الأمكنة التي تتعرض للنيران. لكنهما استشهدا بعد سنوات من التطوع والعمل في ميدان العطاء والسعي في سبيل الإنسان بحياد تام وإنسانية مطلقة من دون تحيز.

في منزلي الشهيدين في منطقتي "الشيخ محمد" و"الجديدة" جارتي مدينة "حلبا" في "عكار"، أحد أقضية محافظة الشمال في لبنان، تبدت المأساة وكان وقعها على العائلتين المنكوبتين كوقع الكارثة برغم تأكيد العائلتين الاستعداد لتقديم الغالي والرخيص من أجل لبنان والإنسان.

كان بولس شابا أعزب مندفعا، عطوفا وحنونا، يحب الأطفال ومساعدة الناس. يروي عنه أصدقاؤه أنه حمل مرة رجلًا عجوزًا مشلولًا إلى الطابق التاسع بين يديه، دون كلل ولا تململ. وقد رفض وظيفة ثابتة تؤمن له مصدر رزق ثابتًا مفضلا عليها العمل مع الصليب الأحمر اللبناني تطوعًا ومن دون أن يستبعد أن يسقط يوما شهيدًا فداء لأولئك الذين نذر نفسه لمساعدتهم. ولبولس شقيق آخر متطوع في فرق الصليب الأحمر اللبناني.

يقول وسام عبدالله، المسعف في مركز حلبا وقريب الشهيد هيثم، أن "ليس أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه فداءً عن الآخرين، هذا تمامًا ما قام به الفقيدان بولس وهيثم..." ويتابع وسام "اعتدنا على استقبالهما من ساحات العمل الإنساني المشرف استقبال الفاتحين، ولم نحسب يومًا أننا سنستقبلهما مكفنين بعلم الصليب الأحمر".

لا يختلف الوضع في منزل الشهيد هيثم ميشال سليمان الذي تطوع منذ أربع سنوات في صفوف الصليب الأحمر اللبناني إلى جانب مهنته في تعليم الرياضة في إحدى مدارس حلبا. ترك أستاذ الرياضة والمتطوع في العمل الإنساني فراغًا كبيرًا برحيله.

وكان صوت والدته المفجوعة التي زفته عريسًا يكسر بين الفينة والأخرى حالة الذهول التي تعيشها العائلة. "ما الذنب الذي اقترفه هيثم الذي اختار خدمة الإنسان المعذب والمحتاج". كانت تقول. ويتحدث والده عن بعض أحلام هيثم الذي كان على وشك الزواج "كان يتحدث كثيرًا عن رغبته بتربية اولاده بمثالية عالية وتأمين مستقبل جيد لهم".

بولس وهيثم الشهيدان، شمعتان أطفئتا قسرًا في ظلام هذا الزمن المليء بالمآسي ●

أياد المنذر

مدير الإعلام والعلاقات العامة في الصليب الأحمر اللبناني

على مدى ما يقرب من 60 عاما لعب مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان دورا متميّزًا بشكل كبير في المنطقة التي يقع فيها وهي منطقة «عكار» (شمال لبنان)، وذلك مقارنة بغيره من المخيمات الفلسطينية الواقعة في مناطق أخرى من لبنان. واستفاد مخيم نهر البارد من ضعف السيطرة العسكرية المفروضة على مداخله ومن وقوعه على مقربة من الحدود السورية ومن الطريق الرئيسي المؤدي إلى سوريا، فضلا عن اختلاط سكان المخيم مع سكان منطقة عكار منذ أمد بعيد، مما أدى في أواخر التسعينيات إلى تحوله إلى مركز تجاري محوري في المنطقة الشمالية، وهو ما يتناقض بشكل صارخ مع المخيمات الواقعة في جنوب لبنان والتي ظلت أكثر عزلة عن السكان المحليين على الصعيدين العسكري والاقتصادي. من الصعب التنبؤ بمدى تأثر دور مخيم نهر البارد في منطقة عكار بالحرب الدائرة إلا أنه من المؤكد أنه قد تقع أضرار لا سبيل إلى إصلاحها ما لم يتم بذل الجهود لتهدئة مشاعر الخوف المتصاعدة بشأن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تربط المجتمعين المحليين والتي جرى نسج خيوطها على مدار ما يقرب من 60 عاما.

في أواخر العام 1949، أدركت عصبة جمعيات الصليب الأحمر** أن هناك حاجة إلى بناء مخيم جديد في شمال لبنان ليستوعب اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في هذه الأثناء في ظل ظروف بشعة في مناطق البقاع وطرابلس والمينا. وانطلاقا من هنا أقيم مخيم نهر البارد حيث كان المخيم الوحيد في لبنان الذي تمت إقامته وإعداده قبل انتقال اللاجئين إلى المنطقة؛ فقد أقيمت المخيمات الأخرى جميعها حول تجمعات سابقة للاجئين الفلسطينيين أو بقايا لمخيمات اللاجئين الأرمن. وكانت إقامة المخيم بمثابة دلالة أخرى تضاف إلى الدلالات الكثيرة التي كانت تشير إلى أن نزوح اللاجئين الفلسطينيين سيستمر مدة أطول مما كانوا يتوقعون.

قيود العمل حكمت المصير

في بادئ الأمر، كانت مشاعر الكثير من المواطنين اللبنانيين، لاسيما المزارعين والعمال الريفيين، حيال الفلسطينيين يشوبها الخوف والشك. إلا أن الفلسطينيين شرعوا في البحث عن عمل، حيث كان للكثير منهم خلفية ريفية، وسرعان ما عملوا في المزارع الواقعة حول منطقة عكار حيث قضوا على بعض التحيزات ضدهم. وفي الستينيات، صوت اللبنانيون على قوانين مقيدة خاصة بوضع الأجانب في لبنان حيث اقتصر وجودهم على

بخلاف غالبية مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، شكّل مخيم نهر البارد في شمال لبنان حالة منفردة في النسيج الاجتماعي مع محيطه وفي الدور الاقتصادي الذي أداه كمركز تجاري محوري في منطقة عكار، إحدى المناطق التي عانت تاريخيا من الفقر. غير أن اندلاع العمليات الحربية بين منظمة "فتح الاسلام" الراديكالية في المخيم والجيش اللبناني تسبب في نزوح غالبية سكانه المدنيين إلى المناطق المجاورة. لكنه أيضا سدد ضربة إلى هذا الدور وإلى العلاقات الاجتماعية بين أبنائه من الفلسطينيين وأبناء المنطقة من اللبنانيين من الصعب التنبؤ بمدى تأثيرها على مستقبل المخيم.

AFP

مصير الدور الاجتماعي والاقتصادي لمخيم نهر البارد

مايكل رومغ*

الأشخاص الذين يزاولون أعمالا ثانوية أو قليلة الأجر. كما كانت غالبية الأعمال والأموال ترد إلى المخيم من منظمة التحرير الفلسطينية وذلك في السبعينيات والثمانينيات. وقد أنشأت الأجهزة الضخمة الخاصة بمنظمة التحرير الفلسطينية شبكة من الأعمال والمناصب مما أدى إلى الوصول إلى شبه اكتفاء ذاتي على الصعيد الاقتصادي. إلى جانب ذلك، أدى عبور الطريق الرئيسي المؤدي إلى سوريا داخل مخيم نهر البارد مباشرة إلى مرور مئات بل آلاف من اللبنانيين والسوريين بالمخيم يوميا. وقد أدى رخص السلع المباعة على طول الطريق المار بالمخيم إلى جذب الكثير من اللبنانيين وبالتالي زيادة دخل سكان المخيم. وأصبحت السلع المستوردة من الصين ومصر وإندونيسيا وإسبانيا وسوريا توفر للمشترين تنوعا في الأسعار والمنتجات لا مثيل له في لبنان.

المخيم: سوق تجارية ومستشفى للفقراء

وبعد انهيار هيكل منظمة التحرير الفلسطينية بعد مغادرة الرئيس ياسر عرفات للبنان في أواسط الثمانينيات، بدأت الحالة الاقتصادية في مخيم نهر البارد تتدهور، حيث أصبح يعتمد الدخل الرئيسي للمخيم على الأعمال التجارية التي تجرى على طول الطريق الرئيسي وعلى القيام بأي عمل خارج المخيم في أغلب الأحيان في مجال البناء. كما أصيب الاقتصاد وبالتالي سكان مخيم نهر البارد بضربات قوية بعد طرد الكثير من العاملين الفلسطينيين في الكويت والخليج نتيجة لمساندة عرفات لصدام حسين في غزوه للكويت في العام 1991 وكذلك بعد إنشاء الأوتوستراد الجديد المؤدي إلى سوريا والذي يمر حول المخيم وذلك في منتصف التسعينيات. وفي العام 1997، يسرت الإمارات العربية المتحدة وأوروبا عملية منح تأشيرات سفر للفلسطينيين مما أدى إلى مغادرة الكثير من الشباب الفلسطيني للمخيم والسفر إلى إحدى هذه الدول بعد يأسهم من الحصول على فرص عمل في لبنان.

اقتصرت العلاقة بين اللبنانيين والفلسطينيين في منطقة عكار على العلاقات الاقتصادية والاجتماعية حتى أواخر العام 2006. وقد اعتاد اللبنانيون المقيمون في القرى المحيطة بطرابلس أو حتى بيروت على شراء المفروشات اللازمة لتجهيز منازلهم الجديدة من مخيم نهر البارد وأيضا شراء الملابس الرخيصة وكذلك عمل ثقوب في آذانهم هناك. ونظرا لبساطة حال الكثير من المشترين من السكان المحليين اللبنانيين، فكثيرا ما كانت عملية السداد تتم على شكل أقساط شهرية. ويحكي سكان المخيم أن جنود الجيش اللبناني كانوا من أهم عملائهم في منطقة عكار، إذ كانوا يدفعون القليل ولكن بشكل منتظم كما كان من الممكن الاعتماد عليهم لدفع القيمة الكاملة، وفي نفس الوقت لتلافي الوقوع في مشاكل مع ضباط الجيش في حال عدم السداد. كما كانت تعتمد أيضا العديد من الأسر الفقيرة في منطقتي عكار وطرابلس على مخيمي نهر البارد والبدّاوي في الحصول على الرعاية الطبية، إذ إن الأطباء الممارسين داخل العيادات هناك تعلموا في المدارس والجامعات نفسها التي تعلم فيها نظراؤهم من اللبنانيين، إلا أنهم لا يستطيعون العمل في لبنان، ويقدمون الرعاية نفسها نظير جزء صغير من التكلفة التي يتم عادة دفعها للمستشفيات اللبنانية. وفي أثناء الحرب مع إسرائيل في تموز من العام 2006، أصيب العديد من الجنود اللبنانيين في منطقة عكار وقام سكان مخيم نهر البارد بنقلهم على وجه السرعة لتلقي العلاج داخل عيادات المخيم قبل نقلهم إلى طرابلس أو بيروت في وقت لاحق.

الزيجات المختلطة ربطت اللبنانيين والفلسطينيين في الشمال بعلاقات عائلية واجتماعية

وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن مئات من اللبنانيات متزوجات من فلسطينيين من نهر البارد، كما أن العديد من الفلسطينيات من نهر البارد متزوجات من لبنانيين من عكار. وقد أدى ذلك إلى انتظام الزيارات العائلية بين قرى عكار ونهر البارد، وهكذا أصبح تجول عائلات لبنانية بأكملها في أزقة المخيم مشهدا عاديا.

(*) باحث سويسري في تاريخ الشرق الأوسط وقضايا التنمية

(**) تغير اسمها إلى الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في العام 1991.

كذلك يتوجه الفلسطينيون الذين لا تربطهم باللبنانيين علاقات عائلية إلى القرى المجاورة للتنزه أو في رحلات مدرسية أو لمجرد زيارة الأصدقاء. وتعيش عائلات فلسطينية عدة في قرى خارج المخيم (وقد ظلت فيها على امتداد حرب 2006) ويبلغ عددها 65 عائلة في "ببنين" و85 عائلة في "المنية" وعدد من العائلات في "الحمارة" وغيرها. وقد أدى ذلك إلى اختلاط كبير بين اللبنانيين والفلسطينيين ونشوء صداقات أو علاقات زوجية في ما بينهم كما ذكر أعلاه.

كذلك يعد انتظام أعداد كبيرة من فلسطيني المخيمات في المدارس والجامعات والكليات المتخصصة في منطقتي عكار وطرابلس مثالا آخر على العلاقة القائمة بين الفلسطينيين واللبنانيين. والأمر ذاته ينطبق على الفلسطينيين القائمين بالتدريس في المدارس المجاورة، وعلى عمل الأطباء والاختصاصيين النفسيين اللبنانيين في عيادات داخل المخيم. كما كانت بعض النساء اللبنانيات وأطفالهن يأتين إلى المخيم للمشاركة في الفصول أو ورش العمل التي تنظمها بعض المنظمات غير الحكومية فيه.

ولا يقصد من ذلك الإيحاء بعدم وجود توترات بين المجتمعين. فالعديد من اللبنانيين يلقون بمسؤولية نشوب الحرب الأهلية على الفلسطينيين ويجدون في وجودهم سلبيات أكثر من الإيجابيات. والعديد من الفلسطينيين مستاؤون من رفض اللبنانيين منحهم حقوقهم المدنية الأساسية، كما أنهم يشعرون بالإحباط عندما يتمكن أصدقاء المدرسة والجامعة من اللبنانيين من إيجاد وظائف بينما هم مقيدون بالحياة في مخيم للاجئين. ومع ذلك فقد نجحت المزايا التي ذكرناها آنفا إلى حد بعيد في تخفيف حدة هذه الاتهامات والتغلب على الشعور بالإحباط.

انفراط العقد الاجتماعي

بعد الإعلان عن قيام مجموعة سلفية راديكالية جديدة باسم "فتح الإسلام" في نهر البارد في نوفمبر/تشرين الثاني 2006، ضيق الحكم العسكري قبضته على المخيم مما أدى إلى تدنٍّ شديد في تفاعل سكان المخيم مع اللبنانيين في المناطق المجاورة. كذلك توقف الأطباء اللبنانيون الذين دأبوا على العمل هناك سنين طويلة عن المجيء وبدأ المتسوقون في السفر إلى طرابلس لتجنب خطر عدم وضوح وعدم استقرار الوضع في نهر البارد. وقد أدى نشوب العمليات العدائية •••

مصير الدور الاجتماعي والاقتصادي لمخيم نهر البارد

••• الحادة بين الجيش اللبناني وجماعة فتح الإسلام إلى نزوح موجات كبيرة من سكان نهر البارد للسكن بشكل مؤقت وفي ظل ظروف شديدة الصعوبة في مخيم البدّاوي المجاور ومنطقة طرابلس وحتى في بيروت والمخيمات الجنوبية، وهم يقيمون الآن هناك منذ ما يزيد على أربعة أشهر ويتوقع أن تستمر إقامتهم إلى ما لا يقل عن ستة أشهر أخرى. وقد أدى ذلك إلى أن أخذت التوترات بين الفلسطينيين واللبنانيين أبعادا غير مسبوقة.

وعلى الجانب اللبناني، فإن عددا كبيرا من الجنود الذين لقوا حتفهم أثناء القتال كانوا من منطقة عكار. كذلك استهدفت جماعة "فتح الإسلام" بعض القرى القريبة من المخيم مثل "دير عمار" بصواريخ الكاتيوشا، لتأتي بالحرب إلى أعتاب البيوت. وأفضى مناخ الخوف وعدم الاستقرار والسؤال المطروح بشأن عدم معالجة الفلسطينيين لهذه المشكلة بأنفسهم، باللبنانيين إلى التشكيك في الدور الإيجابي الذي لعبه نهر البارد في المنطقة في السابق. وعلى الجانب الفلسطيني، أفضى نزوح سكان المخيم بأكمله وتدمير أعداد كبيرة من المنازل والمحال والمدارس وغيرها، وإلقاء القبض على العديد من الفلسطينيين واحتجازهم دون وجه حق، إضافة إلى الخوف من المستقبل، أفضى بالفلسطينيين إلى التشكيك في العلاقات الإيجابية التي جمعتهم يوما بجيرانهم اللبنانيين.

وعلى الرغم من هذه المخاوف والتوترات، فقد جاء بعض اللبنانيين لزيارة أصدقائهم الفلسطينيين في مخيم البدّاوي وغيره من المناطق التي نزحوا إليها. ولا يزال بعض الفلسطينيين يذهبون لزيارة أصدقائهم اللبنانيين، ولا تزال العائلات الفلسطينية التي تقطن في القرى القريبة من نهر البارد وما حوله تبقي قدر إمكانها على علاقاتها العادية مع جيرانها. ويعبر معظم السكان من كلا المجتمعين عن رغبتهم في أن تعود الأمور إلى سابق عهدها. إلا أن عدم التحرك هو العائق الأكبر أمام إعادة بناء العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت في ما مضى قائمة بين الطرفين. فما لم يبذل جهد على المستويين السياسي والاجتماعي لطمأنة كلا المجتمعين وتوضيح أن العديد من مخاوفهم لا أساس لها ولمناهضة ظهور عداوة في ما بينهم، فإن العلاقة الاقتصادية والاجتماعية القيمة والمفيدة لكليهما والتي تأسست على مدى ما يقرب من 60 عاما ستكون قد ذهبت أدراج الرياح في 60 يوما أو أكثر بقليل ●

اللجنة الدولية والتخفيف من آلام النازحين

منذ الأيام الأولى من النزاع في مخيم "نهر البارد" تدخلت اللجنة الدولية للصليب الأحمر وشركاؤها في الحركة من "جمعية الصليب الأحمر اللبناني" و"الهلال الأحمر الفلسطيني" لتقديم المساعدات الطبية والإنسانية للاجئين ولإجلاء الجرحى والموتى. ومع بداية النزاع وضعت قواعد للعمل الميداني حيث تولى الهلال الأحمر الفلسطيني مهمة نقل المصابين والمستضعفين من داخل المخيم إلى مدخله حيث ينقلون من هناك في عربات إسعاف تابعة للصليب الأحمر اللبناني إلى المستشفيات. وقد زودت اللجنة الدولية مستشفى صفد التابع للهلال الأحمر الفلسطيني بالإمدادات الطبية لتعزيز قدرته على معالجة الأعداد الهائلة من الحالات الطارئة، ومدت نطاق الدعم لفرق الطوارئ والإسعافات الأولية التابعة للصليب الأحمر اللبناني بالإضافة إلى تولي تنسيق المساعدات المقدمة لنهر البارد وعملية إجلاء المدنيين.

وعالج المستشفى 152 حالة على الأقل من المصابين بالرصاصات والشظايا بالإضافة إلى حالات الجفاف التي أصابت الأطفال والحوامل وكبار السن. ويعلق الدكتور **يوسف الأسعد**، مدير المستشفى أنهم لم يعانوا نقصا في العقاقير أو الأمصال حيث كانت اللجنة الدولية تمدهم بها بشكل منتظم، كما أوضح أن المستشفى عالج العديد من حالات الاكتئاب العصبي. كذلك أعيد تحويل حالات الإصابات الحادة في الصدر أو الدماغ إلى مستشفيات مدينة طرابلس حيث إن مستشفى صفد غير مجهز بالمعدات اللازمة لعلاج مثل هذه الحالات الحرجة.

وتوضح **ساندرين تيلر** مسؤولة في اللجنة الدولية عن تنسيق التعاون في لبنان "**أن التنسيق نجح بين مكونات الحركة وتمكنا من تقاسم مواردنا واضطلع كل طرف بدوره ومسؤولياته، وعملنا سويا لصالح المستفيدين من خدماتنا**". كذلك ساهم شركاء آخرون للحركة مثل "الهلال الأحمر الكويتي" و"الهلال الأحمر القطري" و"الصليب الأحمر الهولندي" في تقديم الخدمات والمعدات الطبية إضافة إلى المساعدة في إدارة المستشفيات.

ويؤكد **جورج كتانة**، رئيس وحدة الخدمات الطبية الطارئة بالصليب الأحمر اللبناني، على حتمية التنسيق مع الهلال الأحمر الفلسطيني فنحن لم نتعاون سويا بمثل هذه الفعالية والتنسيق من قبل، على الأرجح لأن الهلال الأحمر الفلسطيني هذه المرة معني بشكل مباشر بالتبعات الإنسانية لهذا النزاع المسلح الجاري في مخيم للاجئين الفلسطينيين.

وقد قدمت اللجنة الدولية بالتعاون مع الجمعيات الوطنية 123 طنا من المساعدات الغذائية للاجئين في البداوي وللسكان العالقين في نهر البارد. كذلك أرسل ما لا يقل عن 125 ألف لتر من المياه المعبأة إلى المخيم المحاصر. وحصل النازحون من نهر البارد الذين طلبوا اللجوء في مخيمات فلسطينية أخرى في جنوب لبنان وفي منطقة البقاع شرقي البلاد على نصيبهم من مساعدات اللجنة الدولية في ما يتعلق بالغذاء والمواد المنزلية الأساسية.

وبعد معالجة الأثر المباشر للأزمة الإنسانية التي نتجت عن خروج أعداد هائلة من قاطني نهر البارد في الأيام الأولى من القتال، ركزت اللجنة الدولية جهودها فيما بعد على تقديم المساعدات للسكان المدنيين الذين تخلفوا وفضلوا أن يبقوا في المخيم المحاصر.
وبالتوازي نظمت اللجنة الدولية حملة لرفع الوعي بالمخاطر الإنسانية للذخائر غير المنفجرة المتوقعة مع عودة لاجئي نهر البارد في آخر الأمر إلى مخيمهم.

س.ق.

ICRC

غزة

سجن هائل يخفي أزمة إنسانية

مع بداية شهر يونيو/حزيران الماضي بدأت وكالات الإغاثة تحذر من ازدياد مصاعب المعيشة بالنسبة لسكان قطاع غزة الذين يخضعون لحصار فرضه عليهم الجانب الإسرائيلي ومقاطعة دولية لحكومة حماس. وما زاد الأمر سوءا الاشتباكات العنيفة التي دارت بين حركتي فتح وحماس وانتهت بسيطرة الأخيرة على القطاع الذي تبلغ مساحته 360 كلم مربع ويضم حوالي مليون ونصف مليون نسمة مما يجعله من أكثر المناطق اكتظاظا سكانيا في العالم.

وقد أدى الحصار والاقتتال إلى تأزم الوضع الإنساني في القطاع مع تعذر وصول المساعدات إليه. فارتفعت أسعار المواد الغذائية الأساسية بنسب تتراوح بين النصف والثلث. وعانى المزارعون من نقص في الإمدادات والمستشفيات من نقص في الأدوية. كما أدت المقاطعة إلى بقاء معدات المياه الأساسية على الحدود لشهور مما هدد بفيضان مياه الصرف الصحي من محطة مجارٍ رئيسية وتلوث المياه التي يستهلكها 300 ألف شخص.

وإذا كانت السلع الأساسية بقيت متاحة في الأسواق إلا أن التبادل التجاري بين غزة والخارج ظل محدودًا. ووفقًا "لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية"، فإن المساعدات الإنسانية تلبي 70٪ من الاحتياجات الغذائية الدنيا لسكان غزة، وقد استؤنفت بعض الواردات المحدودة ولكن بمستويات أدنى بكثير من حجمها العادي.

ويعتمد قطاعا الصناعة والزراعة في غزة عادة إلى حد كبير على •••

AFP

●●● حركة الواردات والصادرات. ويقول السيد **كريستوف دريس** منسق اللجنة الدولية للصليب الأحمر لبرامج الأمن الاقتصادي في غزة والضفة الغربية: "**إذا لم تستأنف المبادلات التجارية المنتظمة، فيمكن أن تتاثر على نحو خطير كل دورة الإنتاج في المدى المتوسط، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى ازدياد الفقر لدى سكان غزة المستضعفين أصلا**".

ويمكن التمييز بين نوعين من أعمال العنف التي واجهت سكان غزة خلال الفترة السابقة. فهناك العمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي من جهة، وهناك الاشتباكات الداخلية بين الفصائل الفلسطينية من جهة أخرى.

تتمثل العمليات العسكرية الإسرائيلية أساسًا في عمليات التوغل التي يمكن أن تؤدي إلى عزل أحياء بأكملها في بعض المدن أو القرى. وخلال هذه العمليات، يتعذر على السكان التنقل من مكان إلى آخر، ومن ثم يستحيل عليهم الوصول إلى الأسواق والمستشفيات أو الاستفادة من الخدمات الصحية. وبالإضافة إلى ذلك، تُحتل بعض المنازل، وفي بعض الأحيان لا تستطيع الأسر التي تسكنها الحصول على المياه والغذاء.

أما في حالة الاشتباكات الداخلية، فقد وجدت صعوبات جمة تتعلق بالحصول على الخدمات الطبية. فكثيرًا ما جرى تأخير سيارات الإسعاف أو منعها من الوصول إلى الجرحى ونقلهم بسرعة إلى المستشفيات بسبب نقاط التفتيش والحواجز التي اعترضت طريقها. وقد تمثل دور اللجنة الدولية الرئيسي خلال فترة الاقتتال الداخلي في كفالة احترام المهمة الطبية. وتذكير الفصائل المعنية بأن سيارات الإسعاف وأفراد الوحدات الطبية والمستشفيات يجب أن تحظى بالاحترام في كل الأوقات.

هذا الواقع عبر عنه تقرير "للجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة" وعرضته اللجنة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في الثامن من حزيران/يونيو الماضي حيث اعتبر أنه "**على الرغم من انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة في آب/أغسطس 2005 إلا أن اللجنة لم تسجل حدوث أي تحسن في الحالة خلال الأشهر القليلة الماضية. فلا تزال غزة بمثابة سجن هائل في حيز مكشوف، يخضع للسيطرة الصارمة من جانب السلطات الإسرائيلية التي لم ترفع قبضتها الشديدة عن المطار والميناء البحري. ولا تزال نقطتا تفتيش "إيريتس" و"كارني" تُغلقان لفترات ممتدة، على نحو يضر إضرارا جسيما بالتدفق العادي للأشخاص والسلع. وما زالت القيود المتزايدة المفروضة على التنقل في الضفة الغربية من جراء تمدد عملية تشييد الجدار والتزايد المتواصل بلا هوادة في تدابير إغلاق الطرق ونقاط التفتيش ينزلان البلاء بالأحوال المعيشية اليومية للفلسطينيين ويعرقلان إمكانية قيام دولة قادرة...**"

تدهور البنية التحتية الطبية

يقول **توماس والكر**، اختصاصي التخدير في الفريق الجراحي التابع للجنة الدولية للصليب الأحمر بعد إنجازه مهمة في غزة استغرقت أسبوعين: "**إن أحد التحديات الرئيسية التي نواجهها في غزة تتمثل في تدهور البنية التحتية**". ولم يكن من الممكن تغيير التجهيزات الأساسية في معظم المستشفيات في قطاع غزة أو إصلاحها بشكل ملائم، وذلك لأسباب تعود في جزء منها إلى العقوبات التي فرضت على السلطة الفلسطينية بعد فوز حماس بالانتخابات في العام 2006.

ويوضح **والكر** إنه "**ينبغي على اختصاصيي التخدير استحداث طرق جديدة لأن الطرق العادية تعتمد على آلات أصبحت معطلة**".

تقول **إيلين دالي**، منسقة اللجنة الدولية الطبية: "**بالإضافة إلى الضغط الذي تعرضوا له خلال الأيام الأخيرة بسبب العدد الكبير من المرضى وساعات العمل الطويلة، يشعر العاملون في المستشفيات بمزيد من الإحباط بسبب تعطّل بعض التجهيزات الطبية. فنظرًا إلى تعليق المساعدات المقدمة إلى السلطة الفلسطينية، غالبًا ما تعذر في العام الماضي صيانة التجهيزات الطبية أو استبدالها...**"

وترى السيدة **إيلين دالي**، "**إن الخطوة التالية التي يجب القيام بها الآن هي التركيز على الحاجات الخاصة بإعادة التأهيل الجسدي. فمعظم الإصابات الناجمة عن القتال الذي دار مؤخرًا كانت في الساقين. ويحتاج المرضى، خاصة الأصغر سنًا، إلى علاج فيزيائي لمساعدتهم على تقوية عضلاتهم حتى يتسنى لهم استخدام الأطراف الاصطناعية استخدامًا ملائمًا**".

ويبقى الدخول إلى غزة خاضعًا لقيود صارمة عند جميع نقاط العبور من إسرائيل.

وكانت اللجنة الدولية قد زودت مستشفيات غزة بمجموعة من الأدوية والتجهيزات الأساسية شملت المضادات الحيوية والأدوية المخدرة، ولوازم خياطة الجروح، وأنابيب النزح الصدري (للإفرازات الرئوية)، والأدوية اللازمة للعمليات الجراحية... كما قامت بتوفير ماء الشرب والحصص الغذائية إلى المستشفيات.

وتقول السيدة **دالي**: "**تعمل اللجنة الدولية مع المستشفيات والسلطات من أجل إيجاد قطع الغيار اللازمة داخل غزة قدر الإمكان، أما إذا استحال ذلك فتؤمنها من الخارج**".

وقد حذرت بعض جماعات الإغاثة من أن المقاطعة ربما تزيد التشدد وسط سكان غزة. إذ يقول **جون جينج** رئيس عمليات وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا) في غزة إن "**في البؤس والفقر توجد بذور العنف**". وأضاف "**رسالتنا بسيطة للغاية. لا يمكننا معاقبة سكان قطاع غزة. لذا ما يتعين علينا عمله هو الأخذ في الاعتبار ألا يجعل ما يحدث ظروف المعيشة أكثر بؤسا مما كانت عليه بالفعل**".

لكن ما أثار الجزع لدى لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة ما سمعته من أن دراسة استقصائية للأطفال الفلسطينيين أجرتها منظمة غير حكومية جيدة السمعة في إحدى مدارس غزة بينت أن 40 في المائة منهم يريدون أن يصبحوا مُفجِّرين انتحاريين، أو بعرفهم استشهاديين.

المساعدات الإنسانية لا تكفي

وحذرت منظمة "أوكسفام" البريطانية للأعمال الخيرية من أن أكثر من مليون مواطن فلسطيني سيواجهون أزمة إنسانية حقيقية ما لم يسمح بدخول المساعدات إلى القطاع على الفور.

إذ لا تكفي المواد الغذائية الموجودة في محلات غزة لعدة أسابيع. وهناك نقص دائم في المنتجات القابلة للتلف مثل اللحوم ومشتقات الحليب التي تستورد في العادة من إسرائيل أو الضفة الغربية.

فالإغلاق شبه الكامل لنقاط العبور في غزة أو خارجها وغياب الاتصال بين السلطات من الجانبين زاد من خطورة الأوضاع التي لا يمكن معالجتها عن طريق المساعدات الإنسانية وحدها. فالمساعدة في المجال الاقتصادي والتبادلات التجارية على المدى الطويل هي السبيل المستدام الوحيد لمساعدة سكان غزة".

وكانت عمليات نقل البنزين والوقود من إسرائيل قد استؤنفت. ولم تنقطع الإمدادات بالماء والكهرباء إلا في أجزاء من مدينة غزة حيث عانى المواطنون من قلة في الطاقة الكهربائية وانقطاع في التيار الكهربائي مما كان له أثر على ضخ المياه.

وتعرضت بعض مرافق الاتصال في غزة للتدمير بسبب القتال إلا أن معظمها جرى إصلاحه منذ ذلك الحين.

كما استأنفت اللجنة الدولية أنشطة الحماية وجمع المعلومات عن الانتهاكات المزعومة للقانون الدولي الإنساني وستناقش مع السلطات المعنية المسائل التي تثير قلقها.

وكلما ساد الهدوء بمنطقة ما تمكن السكان من مغادرة منازلهم وإعادة تخزين إمداداتهم.

وتقول نائبة رئيس البعثة الفرعية للجنة الدولية في غزة، السيدة **كلاوديا لوشر**: "**كان من الصعب، على مدى الأيام القليلة الماضية، بل أحيانا من المستحيل على السكان مغادرة منازلهم للتزوّد بالمواد الأساسية. ونظرًا إلى نشوب القتال وتوقفه بصورة مفاجئة، أصبحت عمليات نقل الجرحى إلى المستشفى في غاية الخطورة**" ●

تأملات من غزة :

الحب والكبرياء ونادي القتال

إذا كان الهدف الأساس من تطور المدونات (بلوغز) هو في نشر اليوميات الشخصية للمدون على شبكة الإنترنت ليطلع عليها زائرو الشبكة إلا أن هذه المدونات ما لبثت أن تحولت إلى وسيلة إعلامية بديلة دخلت مؤخرا على المشهد الإعلامي العربي. وفي محاولة لإعطاء بعد جديد لواقع الحالة الإنسانية التي يعيشها سكان غزة في ظل الحصار ومع الاقتتال الداخلي بين الفصائل الفلسطينية، تنشر "الإنساني" مجموعة من الرسائل التي أضافتها «هبة»، وهي سيدة فلسطينية ناشطة في مجال حقوق المرأة، على مدونتها "تأملات من غزة"* من مايو/أيار وحتى أغسطس/آب 2007.

AFP

الأحد 20 مايو/أيار 2007

لم أحب الإجازات السنوية أبدا..!

أنا لا أذاكر لامتحان نهاية العام، لأني في الواقع في إجازة سنوية. والغريب أنه كان يتعين عليَّ اقتناص الفرصة واستغلال الوقت في الدراسة، ولكنني لا أفعل. يا ربي، كم أكره البقاء في المنزل! أعرف أن هناك أمهات كثيرات يمكثن في البيت ويشعرن بالسعادة والرضا، ولا يردن أي شكل آخر، ولكني أشعر بالسجن في الإطار المنزلي. وأقر بأني لا أجد متعة في الاستيقاظ في التاسعة صباحا، وبدء يومي بالأعمال المنزلية، ومشاهدة التليفزيون، ورعاية طفلتين أربعا وعشرين ساعة طوال أيام الأسبوع. فأنا أحتاج فعلا للشعور بالضغط في النهار، فهذا ما يجعلني شخصا منتجا. أعتقد أنني لو كنت أعمل، لكنت درست في الأمسيات، وما قضيت وقتي في التسكع في الشوارع. على أية حال، فإني الآن أتعجب، كما تعجبت دائما، لأني لا أفعل سوى مراقبة طفلتيَّ وهما تكبران. كانت ابنتي الكبرى **سبأ** تردد بعض أغنيات الأطفال التي تعلمتها في دار الحضانة. استرعت انتباهي أغنية عن سمكة ابتلعها حوت. كانت **سبأ** تردد أن السمكة حفرت حفرة في بطن الحوت وشقت طريقها خارجه بشجاعة. أعتقد أنها لا تفهم المعنى الحقيقي من الكلمات التي كانت تغنيها، ولكنها كانت ترددها في مرح. انتقلت بعدها إلى أغنية أخرى كانت تغني فيها عن جيش الحرية الذي سوف يحمي البلد، ●●●

●●● وكانت تخلط بين كلمة (جيش) وكلمة (جيب) لتشابههما، وضحكت بشدة من سذاجة "جيب الحرية". أتساءل هنا إذا كنا نعلّم أولادنا هذه الكلمات والمفاهيم الكبيرة التي يفهمونها عندما يكبرون بعد اعتيادهم على ترديدها. أعتقد أننا – كآباء – لا نشك أبدا في أنهم يفهمونها بطريقتهم الخاصة. أحاول الآن تدريب ابنتي الصغرى على استخدام "التواليت"، وأشعر أني أفقد صوابي! صدقوني، إنه أمر أصعب من التسويق الاستراتيجي ونظام إدارة المعلومات.

يعود إلى غزة من جديد الصراع الداخلي الخطير بين فتح وحماس. إضافة إلى ذلك، أدى إضراب عمال النظافة بالمحليات لعدم حصولهم على رواتبهم إلى تكدس القمامة في المدينة. إن توقيف سيارتنا بينما أنا وأطفالي بداخلها مرات عدة في الشارع من قبل ملثمين مسلحين وإثارة الفزع في قلوب الأطفال، جعل الوضع الفلسطيني الداخلي شديد الإحباط حتى إنني لا أستطيع الكتابة عنه. لذلك لن أكتب عنه، ويبدو أن البقاء في البيت ليس بهذا السوء في نهاية الأمر.

◆

الثلاثاء 12 يونيو/حزيران 2007

فقدت إيماني بالأغنيات الوطنية القديمة..

عاد إلى غزة من جديد الاقتتال الداخلي بين فتح وحماس، وهو شديد الخطورة هذه المرة، وأميل إلى الاعتقاد بأن كل فصيل منهما عازم على تحقيق نصر عسكري على الآخر. تخيل أن تُسجن في بيتك في المطبخ مع أطفالك (وهم دون الرابعة) ومع جيرانك وأطفالهم دون كهرباء لمدة عشر ساعات! فقد اقتحمت جماعة «مسلحة» منزلنا الآمن الجميل المكون من ستة طوابق أسكن في الطابق الخامس منها، واستخدمت سطح المنزل لإطلاق النار وقصف القنابل على فصيل آخر. راقبت طفلتيّ وأنا مرعوبة ومنزوية في ركن وقد أصابني الخرس، كانت إحداهما تتعلق ببطانية وقد غطت وجهها بدميتها في صمت، وفي عينيها نظرة متحجرة، أما الأخرى فكانت تمص إبهامها في توتر، وبدأت في الاسترخاء مع تمرير يدي على شعرها. جيراني، وهم زوجان وثلاثة أبناء هربوا من شقتهم التي كانت أقرب إلى اتجاه إطلاق النار، وبقوا معنا وهم يشعرون بالحرج والتوتر وقد عُقدت ألسنتهم. قضينا أربعا وعشرين ساعة في خوف، وبدت أصوات القذائف والرصاص كما لو كانت آتية من غرفة نومنا. كل مرة يجزع الأطفال، ونحن نقول لهم: «لا بأس» حتى مطلع الفجر. تخيل وضع خمسة أطفال، كلهم دون الرابعة، في المطبخ وعدم السماح لهم بالحركة طوال عشر ساعات، وليس لدينا ما نجيب به عن سؤالهم: «هل سنموت يا أمي؟»، وغير قادرين على تحمل طلبات بسيطة مثل إدخالهم الحمام، لأن الرصاصات كانت شديدة القرب من جميع نوافذ المنزل. في الصباح الباكر، بمجرد أن رأينا ضوء النهار، هربنا من المنزل وذهبنا إلى منزل والدي وأخذنا جيراننا معنا حيث ذهبوا للإقامة لدى ابن عمهم.

تضاءل الأمل بداخلي.. أعتقد الآن أن الاقتتال العنيف، مثله مثل أي تغير اجتماعي، سوف يأخذ مجراه، ويستمر لفترة، أخشى أن تكون سنوات. لذلك أقول وداعا للحلم الفلسطيني، الذي لا يزيد على أحلام بلدان أخرى، الحلم بالحرية والشرف والوحدة والنجاح. هل كان لابد أن يكون بهذا القبح؟ هل كان لابد أن يكون بمثل هذه الدموية؟ كيف حدثت تغيرات أيديولوجية وأخلاقية دون حتى أن نلحظها؟ لست أدرى. تملأ الأكاذيب قنوات الإذاعة التي تتحدث عن «العدو»، والذي من المفترض الآن أنه فلسطيني كذلك. يا للسخرية..! نسمع الكثير عن خطط سياسية مشتتة، وعن ترتيب للأولويات، حتى أننا على وشك أن نفقد إيماننا بالأغنيات الوطنية القديمة.

◆

الخميس 21 يونيو/حزيران 2007

لن أستسلم لليأس..

عادت الحياة الطبيعية إلى غزة أو على الأقل هذا ما كان باديا. لقد قطعت الطريق المؤدي إلى رفح أمس وحمدا لله لم أر أيا من الرجال المسلحين أو أية علامات تشير إلى وقوع قتال. فمقارنة بما حدث في الأسبوعين الماضيين، بدا لي كل هذا المنظر الجميل الذي يطالعني أثناء قيادة السيارة على طول الشاطئ كلوحة تقترب من اللوحات السريالية. فها هو ليل غزة شديد السكون يخلو من أصوات طلقات الرصاص والقذائف. إلا أن هناك قلقا بالغا يسيطر على السكان بشأن جميع القضايا السياسية الأخرى المعلقة الخاصة بازدواجية الحكومة وشرعية حكومة غزة والإغلاق التام المفروض عليها والذي قد يعزلها عن باقي العالم أو يفضي بها إلى ما هو أبعد من ذلك. فسيناريو الأحداث القادمة لم يُكتب بعد كما أنني شخصيا غير متفائلة. على الرغم من ذلك، لا أستطيع الاستسلام لمشاعر اليأس وكذا الحال بالنسبة لأهالي غزة الأبرياء الطيبين والمتفانين الذين يطمحون إلى حياة طبيعية وإلى الحصول على الحقوق الإنسانية الأساسية التي حرموا منها اليوم.

لقد ذهبت بالأمس إلى منطقة "المواصي" الواقعة في رفح وتحديدا بجانب الحدود الفلسطينية المصرية. والمواصي هي إحدى القرى التي احتلتها إسرائيل قبل الانسحاب من المستوطنات وانفصلت عن غزة أو حافظت على وجود الحد الأدنى من الاتصالات مع باقي قطاع غزة منذ أمد بعيد. واليوم يمكن زيارتها حيث تمتلك أجمل الشواطئ النظيفة على الإطلاق. ذهبت إلى هناك لزيارة أحد المراكز النسائية التي جرى تأسيسها حديثا. ولجت إلى إحدى القاعات التي كانت تغص بنساء من مختلف الأعمار وكانت بعضهن متعلمات. كن يتطلعن إليّ بانتظار ما سوف أقوله لهن. لقد خذلتني العبارات لبضع ثوان ثم حاولت جاهدة أن أقول أي شيء وأصبح صوتي مخنوقا وغريبا بعض الشيء.

هكذا تسمرت في مكاني وأخذت أنظر إليهن والأفكار المختلفة تتلاحق في رأسي. إنني أعلم جيدا أن منظمتي لا تملك أن تقدم لهؤلاء النساء الأشياء التي يرغبن في الحصول عليها وأن الكلمات التي سأتفوه بها لا تحمل الوعود التي يتطلعن إليها. أعلم أيضا أن كل سيدة منهن تمثل أسرة بأكملها حيث لا يعمل الزوج وتحمل كل واحدة منهن بنفسها عبء محاولة تحسين الواقع الذي تعيشه لكي يكون أفضل. استجمعت شجاعتي وقمت بإلقاء كلمتي التي أراها مجرد كلام معسول. كما أنني لم أكن أعلم ما هو مدى اقتناعهن بما قلته من عدمه وإلى أي درجة أصابتهن خيبة الأمل أو نسبة رضائهن. وقد أدمعت عيناي من فرط بساطتهن وردود أفعالهن الإيجابية البسيطة والمشجعة. حاولت جاهدة أن أبدو متماسكة إلا أنني على يقين من أن الشيء الذي نحن بحاجة إليه الآن هو التعلق بأهداب الإيمان والأمل ولا يهم كثيرا إن كان هذا الأمل حقيقيا أو زائفا...

◆

الخميس 28 يونيو/حزيران 2007

لا يزال الطريق طويلا...

إن عملي الجديد يشغل كل وقتي وأنا غارقة فيه حتى رأسي مما يمنعني من الاسترخاء. خلال الأسبوعين الماضيين، كنت أتنقل على الطرقات حيث قمت بزيارة العديد من المدن والقرى الممتدة من بيت حانون في

ICRC

المنطقة الشمالية من قطاع غزة وحتى رفح على الحدود الجنوبية. وجعلني لقائي مع الناس وحديثي معهم أدرك حجم المشكلات التي نواجهها ومدى أهميتها. فالحالة الاقتصادية بلغت أقصى درجات السوء. والجلوس مع مديري المنظمات غير الحكومية والمنسقين جعلني أدرك القيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعوق القيام بأي تدخل مناسب. قالت لي مديرة إحدى المنظمات المعنية بالشباب: "تعلمين يا هبة أن عمليات البناء والهدم تتم جنبا إلى جنب في هذا البلد... ونحن نوفر الدعم النفسي للأطفال والرحلات الترفيهية والمعسكرات الصيفية إلا أن كل ما نبنيه داخلهم من ثقة في النفس وتحقيق للذات لا تلبث أن تحطمه النزاعات الخارجية والداخلية". أعتقد أنها على حق. نحن بحاجة إلى بنية تحتية ثابتة سواء كان على الصعيد السياسي أو الاقتصادي حتى نحقق العمل التنموي بجدارة وفاعلية.

ذكرني هذا الوضع بقصة "أرقام" التي كتبتها صديقتي **لانا**. وتتناول القصة امرأة ذهبت لتستمع إلى إحدى المحاضرات حول النمو الاقتصادي في بلدها في التسعينيات إلا أنها كانت منزعجة بشدة من رأس المسمار الغارس في حذائها القديم، ومشغولة البال بشأن ما ستعده من طعام لأسرتها على الغداء! تذكرت هاتين الفقرتين الجميلتين من تلك القصة المعبرة والتي جعلتني أتذكر سيدة أمسكت بي قائلة: "إن 50 دولارا فقط ستساعدني على شراء قفص للأرانب وستحل مشكلاتي وبعدئذ لن أنقطع أبدا عن المجيء لكم للحصول على الاستشارة القانونية والنفسية"!! ألا ترون أن ذلك يفوق قدراتي. إنه يشبه أكثر الإفلاس العاطفي إذ تصبح عاجزا عن إبداء تعاطفك بعد كل هذا الذي تراه. إن "هرم ماسلو" (الخاص بتسلسل الاحتياجات) معلق على حائط حجرتي ومع عدم الحصول على الاحتياجات الأساسية مازال الطريق طويلا أمام "احترام الذات" و"تحققها".

◆

الثلاثاء، 17 يوليو/تموز 2007

السير على قشر بيض

يظل الناس من الخارج يسألونني عن الوضع في غزة ولا أملك جوابا لأسئلتهم. حقا، لا أملك جوابا. يذكرني الأمر بالسير على قشر البيض، فإما أن تشعر بأن قدمك ستزل طوال الوقت أو أنك ستنجح في اجتياز الطريق مع علمك بأن شيئا ما ينكسر من تحتك. على السطح، تبدو الأمور على ما يرام، بل ممتازة في غزة، بينما تحتاج العديد من المعضلات المتداخلة إلى حلول على المستوى الداخلي. والآن أرى حلا، حلا محددا وعادلا وفعالا، هو أقرب ما يكون إلى السراب، شيء تعتقد أنك تراه أو تقف على جوهره ولكنه يتسرب من بين أصابعك!

إن الفصل التام بين الضفة الغربية وغزة يوجع قلب كل فلسطيني، إنه كابوس الكوابيس. ومع ذلك، فقد حدث. يؤلمني ويحزنني التفكير بذلك وأنا أغسل الأطباق أو أحمم أطفالي... وكلمة "شرعية" تفقد معناها فما هو شرعي للبعض ليس شرعيا للآخرين والشرعية نفسها لا معنى لها بالنسبة للعاطلين والمحتاجين أو لذوي الانتماءات القوية أو المتحاملة. إن وعينا ينطوي على فوضى تفوق ادعاءنا بالمعرفة الكاملة للأمور. وأعتقد أن استراتيجية "Carpe Diem" أو "اغتنم يومك" هي أفضل خيار الآن لأولئك الذين يملكون بعض المال. فالأمر قد يكون كما قلت مؤقتا. وإذا كان الواقع الفلسطيني التالي مؤهلا ليصبح انقساما وفجوة كبيرة يصعب سدها، فإننا سنندم ندما شديدا لم نختبره من قبل.

◆

الثلاثاء، 24 يوليو/تموز 2007

لماذا الهروب؟

ظللت أنظر إلى الصفحة البيضاء في محاولة للتفكير في شيء أكتب عنه، فمن حين لآخر أدخل في هذه الحالة المجدبة العقيمة التي أعجز فيها عن التفكير في أي شيء، وهذه الصفحة البيضاء تتحداني وتحبطني حقا.

هل أكتب عن دروس القيادة؟ سيكون ذلك أمرا هزليا، فطالما كانت مهارتي في القيادة سيئة، وقد أجلت هذه المهمة، أي تعلّم القيادة، إلى أبد الآبدين إلى أن بدأ عملي يتأثر سلبا بهذه المشكلة. أم أكتب عن مزاجي الذي أصبح سيئا لدرجة أنني أصيح في وجه أولادي دون أسباب جوهرية؟ ...

أشعر أحيانا بالرغبة في أن أكتب عن فيلم "Fight Club» أو «نادي القتال» وعن تأثير هذا الفيلم على مزاجي بشكل يصعب وصفه كلما شاهدته. فهو دائما ما يربكني ويشعرني بالاغتراب عاطفيا مثل ما أصبح مشروع التشويه والأذى المتعمد جزءا من البيئة المحيطة بنا لفترة معينة من الوقت. يمكنني أن أكتب عن زميلتي في العمل وصديقتي التي تنتظر فتح معبر رفح للسفر إلى الإمارات العربية المتحدة لتتزوج. هي مخطوبة منذ أمد بعيد وقد خططت بالطبع لكل ما يلزم الزفاف (من الفستان إلى قائمة المدعوين) ولكن مع فشل التخطيط الغزاوي كالعادة، ذهبت تخطيطاتها أدراج الرياح. يمكنني أيضا أن أكتب عن قراءتي لرواية Pride and Prejudice أو «حب وكبرياء» للمرة العاشرة ووقوعي في هوى قوة إليزابيث ذات الشخصية الفريدة مرة بعد مرة، والتي تقف في تناقض مع صورة زميل جامعي (يدرس للحصول على درجة الماجستير) قال بالأمس ●●●

●●● للأستاذ باقتناع كبير «المرأة امرأة والرجل رجل– فلماذا كل هذه الجلبة؟» وفي المقابل أومأ الأستاذ برأسه موافقا بصمت أو ربما هو لم يكن منتبها من الأساس.

أعتقد أن كل هذه المواضيع جيدة لتجنب الكتابة عن ما يهم بالفعل. ولكن السؤال هو: لماذا الهروب؟ هي مواضيع تنفع دائما لأغراض التكيف والإذعان والاستيعاب.

◆

الأربعاء، الأول من أغسطس/آب 2007

لماذا تطلق وعودا لا يمكنك أن تفي بها؟

تربية الأطفال أمر صعب. عندما رزقت بأطفالي ظننت في البداية أن تربيتهم سهلة، فما علي إلا أن أخبرهم بما يتوجب عليهم القيام به. بل إنني ناقشت مع زوجي قائمة بما عليهم أن يقوموا به وما ينبغي أن يتجنبوه عندما كانت ابنتي الأولى في «اللفة». يبدو أنه عندما نرزق بالطفل الأول نعتقد أننا نعرف كل الأجوبة حتى نجد أنفسنا أمام الأسئلة. وقد أخذت وقتا حتى أدركت أنها عملية ذات اتجاهين لا يقل نفوذ الطفل فيها عن نفوذ الأهل. وإن بعض الأيام مثل البارحة–عندما كانت طفلتي في أوج نشاطها أو نشيطة بشكل زائد عن الحد بحيث لا تستمع حقا لما أقول ولا يسعني إرضاؤها، هذه الأيام تشعرني بأنني جاهلة وغير قادرة على فهم الأمور.

قالت لي ابنتي مرة إنني قد كذبت عليها لأنني قلت أننا سنذهب إلى مصر وإلى حديقة الحيوان حيث الفيل. نعم لقد استخدمت لفظة «كذب». كان في نيتي بالفعل أن أصطحب أطفالي إلى مصر في الصيف الماضي، ولكنني لم أتمكن أبدا من القيام بذلك بسبب الأحداث في غزة واغلاق المعبر. كيف يمكن للمرء أن يشرح لطفل انه لم يسعه أن يقوم بما كان يرغب في القيام به بسبب قيود سياسية؟ أخبرها أحيانا عندما أكون متعبة وناعسة أن المعبر مغلق، ثم حدث أن سمعتها فيما بعد تخبر أختي أننا لا يمكننا أن نذهب لمصر لأن المعبر مغلق. نعم، إنهم يتعلمون بمثل هذه السرعة، ونعم نحن ننقل إليهم قلة حيلتنا وسجننا بهذه السرعة. وبمثل هذه السرعة أيضا نعلمهم أن هناك أمورا لا يسعنا التحكم فيها وأن ثقتنا وتوكيدنا وقوتنا كآباء وأمهات لا يمكن أن تغير بتاتا من هذا الواقع. إنها بالطبع لا تعلم معنى معبر وخلافه، ولكنها تعلم فقط أنني لم أف بالوعد. لقد تعلمت مؤخرا هذا الدرس الصغير في علاقته بسياق غزة. لا تعد أطفالك بما لا تستطيع الوفاء به ●

(*) www.contemplating-from-gaza.blogspot.com

AFP

هل كان علينا أن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أيدينا... لنُدْرك أننا لسنا ملائكة.. كما كنا نظن؟ وهل كان علينا أيضًا أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

كم كَذَبنا حين قلنا: نحن استثناء!

أن تصدِّق نفسك أسوأُ من أن تكذب على غيرك! أن نكون ودودين مع مَنْ يكرهوننا، وقساةً مع مَنْ يحبّوننا – تلك هي دُونيّة المُتعالي، وغطرسة الوضيع!

أيها الماضي! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك! أيها المستقبل! لا تسألنا: مَنْ أنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضًا لا نعرف. أَيها الحاضر! تحمَّلنا قليلًا، فلسنا سوى عابري سبيلٍ ثقلاءِ الظل!

الهوية هي: ما نُورث لا ما نَرِث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فَسادُ المرآة التي يجب أن نكسرها كُلَّما أعجبتنا الصورة! تَقَنَّع وتَشَجَّع، وقتل أمَّه.. لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد.. ولأنَّ جنديَّةً أوقفته وكشفتْ له عن نهديها قائلة: هل لأمِّك، مثلهما؟

لولا الحياء والظلام، لزرتُ غزة، دون أن أعرف الطريق إلى بيت أبي سفيان الجديد، ولا اسم النبي الجديد! ولولا أن محمدًا هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابة نبيّ، ولكل صحابيّ ميليشيا! أعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين إن لم نجد مَنْ يهزمنا ثانيةً هزمنا أنفسنا بأيدينا لئلا ننسى!

مهما نظرتَ في عينيّ.. فلن تجد نظرتي هناك. خَطَفَتْها فضيحة! قلبي ليس لي... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني، دون أن يصبح حجرًا. هل يعرفُ مَنْ يهتفُ على جثة ضحيّته – أخيه: «الله أكبر»، أنه كافر إذ يرى الله على صورته هو: أصغرَ من كائنٍ بشريٍّ سويِّ التكوين؟

أخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامةَ النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه. رُبَّما لأن النصّ المتعجِّل كان أقوى من المُمثِّل. ما حاجتنا للنرجس، ما دمنا فلسطينيين. وما دمنا لا نعرف الفرق بين الجامع والجامعة، لأنهما من جذر لغوي واحد، فما حاجتنا للدولة... ما دامت هي والأيام إلى مصير واحد؟

لافتة كبيرة على باب نادٍ ليليٍّ: نرحب بالفلسطينيين العائدين من المعركة. الدخول مجانًا! وخمرتنا... لا تُسْكِر! لا أستطيع الدفاع عن حقي في العمل، ماسحَ أحذيةٍ على الأرصفة. لأن من حقّ زبائني أن يعتبروني لصَّ أحذية ـ هكذا قال لي أستاذ جامعة!

«أنا والغريب على ابن عمِّي. وأنا وابن عمِّي على أَخي. وأَنا وشيخي عليَّ».

هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام. من يدخل الجنة أولًا؟ مَنْ مات برصاص العدو، أم مَنْ مات برصاص الأخ؟ بعض الفقهاء يقول: رُبَّ عَدُوٍّ لك ولدته أمّك!. لا يغيظني الأصوليون، فهم مؤمنون على طريقتهم الخاصة. ولكن، يغيظني أنصارهم العلمانيون، وأَنصارهم الملحدون الذين لا يؤمنون إلاّ بدين وحيد: صورهم في التليفزيون!. سألني: هل يدافع حارس جائع عن دارٍ سافر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية في الريفيرا الفرنسية أو الإيطاليّة... لا فرق؟ قُلْتُ: لا يدافع! وسألني: هل أنا + أنا = اثنين؟ قلت: أنت وأنت أقلُّ من واحد!. لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف. ولكني أخجل من بعض ما جاء في مقدمة ابن خلدون. أنت، منذ الآن، غيرك! ●

محمود درويش*

أنت، منذ الآن، غيرك!

(*) شاعر فلسطيني – كتب هذا المقال كرد فعل على الاقتتال الداخلي الذي حصل في غزة في يونيو/حزيران الماضي.

قصة معابر ثلاثة ومأساة الانتظار

ICRC

يعتبر معبر رفح نقطة العبور الوحيدة لسكان غزة حيث ينطلقون من خلاله إلى مصر ومختلف الدول العربية منذ قيام السلطات الإسرائيلية بإغلاق مطار غزة وتدمير مدرجه في أعقاب الانتفاضة الفلسطينية الثانية في أواخر سبتمبر/أيلول من العام 2000. غير أن إغلاق المعبر بعد سيطرة حركة حماس على غزة في يونيو/حزيران الماضي حوله إلى حالة أشبه بفيلم "الحدود" لدريد لحام حيث عانى العالقون من أزمة إنسانية مازالت برسم التكرار كلما أغلق المعبر.

بعد انتهاء حرب يونيو/حزيران في العام 1967، أصبحت سيناء المصرية وقطاع غزة الفلسطيني تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي، وبقي الوضع على هذا الحال حتى وقعت مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل (كامب ديفيد) في العام 1978 والتي انسحبت بموجبها القوات الإسرائيلية من سيناء ومن مدينتي العريش ورفح المصريتين. لكن بقيت رفح الفلسطينية التي لا يفصلها عن رفح المصرية أي حواجز طبيعية أو مساحات فارغة، بقيت تحت الحكم العسكري الإسرائيلي. في رفح تتداخل البيوت بعضها في بعض، ويرتبط أهالي الشطرين بعلاقات قربى ونسب حتى أنك لا تستطيع التفريق بين المصريين والفلسطينيين من أهل المدينة في العادات والتقاليد أو حتى في اللهجة المحكية.

قامت إسرائيل ببناء جدار ومدت الأسلاك الشائكة لتفصل مدينة رفح المصرية عن الفلسطينية بدواعٍ أمنية. ويبدو الجدار للناظر متداخلا بين البيوت وفي الطرقات ويفصل الحارات التي كانت دوما متصلة ومترابطة. وبررت إسرائيل ذلك في حينها "بعمليات التسلل المتواصلة وتهريب الأسلحة من مصر إلى قطاع غزة". بقي الحال على ذلك حتى انسحاب إسرائيل من طرف واحد من القطاع في العام 2005.

حينها بقي أمر المعبر بين غزة ومصر عالقا دون أي حل حتى تدخلت وزيرة الخارجية الأميركية كوندليزا رايس بنفسها لإيجاد حل توافقي لقضية المعبر. فاتفقت الأطراف على أن يكون معبر كرم أبو سالم (كيرم شالوم) والواقع على نقطة تلاقي الحدود المصرية والفلسطينية والإسرائيلية مخصصًا لدخول وخروج البضائع وحملة الجنسيات غير الفلسطينية. كما اتفقت الأطراف على أن يراقب الفلسطينيون الجانب الفلسطيني من معبر رفح والمصريون جانبهم فسقط بذلك المطلب الإسرائيلي بضرورة أن يكون هناك تواجد إسرائيلي داخل المعبر للتحقق من هوية العابرين. وافقت الأطراف كافة على وجود مجموعة مراقبين دوليين منتدبين من الاتحاد الأوروبي للقيام بمهمة التحقق هذه. واستمر هذا الاتفاق نافذًا حتى التغير الأخير الذي حصل في قطاع غزة عندما سيطرت حركة حماس على الحكم ومؤسسات السلطة الفلسطينية في القطاع.

عندها انسحب المراقبون الدوليون وبقي المعبر مقفلًا أمام الحركة من وإلى القطاع مما تسبب في تكدس مئات من الفلسطينيين على الجانب المصري من الحدود دون أي إمكانية لدخولهم.

لم يفتح المعبر بانتظام أبدا، كان يقفل يوما ويفتح في يوم آخر، وبقي أمره بالنسبة للعابرين رهانا صعبا فالمحظوظ فقط من يصادف فتح المعبر يوم سفره أو عودته لدياره. وفي أغسطس/آب من العام الماضي وصلت الأزمة الإنسانية حدها الأقصى عندما أغلق المعبر لمدة زادت على ثلاثة أسابيع بعد احتجاز مجموعات مسلحة فلسطينية للجندي الإسرائيلي **جلعاد شليط**. يومها قامت "اللجنة الدولية للصليب الأحمر" بزيارات لمواقع تجمع المئات وقدمت مساعدات مهمة عن طريق الهلال الأحمر المصري لآلاف الفلسطينيين الذين علقوا على الحدود ولم يستطيعوا العودة إلا بعدما هاجمت مجموعات مسلحة فلسطينية الجدار الحدودي وعملت على فتحه مما دفع بأفواج العالقين للدخول إلى غزة بطريقة غير قانونية من وجهة نظر القانون المصري. عملت السلطة الفلسطينية آنذاك مع الجانب المصري على حل قضية أختام الدخول والخروج وتم ذلك دون تعقيد كبير يذكر.

ومنذ التاسع من يونيو/حزيران 2007، بدأت الأنباء تتضارب حول حقيقة الوضع الإنساني على معبر رفح الحدودي ما بين قطاع غزة وجمهورية مصر العربية. وأوردت التقارير الإخبارية أن عددًا من الفلسطينيين يقدر بستة آلاف شخص عالقون على الجانب المصري من الحدود. وهو ما صرح به أيضا أكثر من مسؤول رسمي فلسطيني محذرا من خطورة الوضع الإنساني على المعابر الحدودية سواء أكانت مع الجانب المصري أو الجانب الإسرائيلي. وما أكده نائب محافظ شمال سيناء اللواء **أحمد صلاح الدين** لبعثة من اللجنة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر المصري. حاولت استقصاء الوضع. وقال **صلاح الدين** في حينها "**أن عددًا كبيرًا من الفلسطينيين عالقون وهم سيحتاجون في وقت من الأوقات إلى تدخل سريع من المنظمات الإنسانية لتمكينهم من الاستمرار في تحمل هذا الوضع الإنساني المتفاقم ما دام المعبر مغلقًا**".

وخلال تلك الزيارة التقينا داخل المعبر بمتطوعي الهلال الأحمر المصري الذين كانوا يتجهزون لأي تدهور للوضع الإنساني للعالقين الفلسطينيين. وقد أظهرت الزيارة التفقدية إلى مخازن الهلال الأحمر داخل نقطة الحدود المصرية، وجود كثير من المستلزمات الضرورية في حالة تجمع العالقين وبقائهم لأيام طويلة دون تمكنهم من الدخول والعودة إلى القطاع.

وفي مدينة رفح المصرية لم نر أي تجمعات فلسطينية تسترعي الانتباه في الساحات العامة أو الشوارع، في المساجد أو المدارس كما ورد في أكثر من تقرير صحفي. وتحققنا من خلال تلك الجولة أن كثيرا من العالقين على الحدود مستضافون لدى أقاربهم وأنسبائهم في رفح المصرية ويملكون نقودا تكفيهم لفترة من الزمن، لكن هذه الموارد كانت تنفد قريبا وكان على المنظمات الإنسانية أن تتدخل لتقديم العون لهم إن آجلا أم عاجلا.

وقد أجرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر اتصالات حثيثة مع الجانب الإسرائيلي مطالبة بفتح المعبر لتمكين عشرات الحالات الإنسانية من مرضى وخلافه من الوصول إلى بيوتهم وعائلاتهم، وكإجراء يهدف إلى تخفيف المعاناة الناتجة عن الوضع الإنساني المتفاقم على المعابر. وافقت إسرائيل على فتح معبر كرم أبو سالم للحركة وعبور المواطنين من وإلى القطاع. ووافقت حكومة الطوارئ برئاسة سلام فياض من حيث المبدأ على فتح معبر أبو سالم ولفترة محدودة، في حين بقيت حماس التي تسيطر فعليا على نواحي الحياة المختلفة في القطاع، وبيدها القرار النهائي، متمسكة بموقفها الرافض للتعامل مع أي معبر سوى معبر رفح. واعتبرت أن أي تنازل في هذا الصدد من شأنه أن يعيد تكريس الاحتلال على حياة الفلسطينيين القاطنين في غزة وقطاعها. وطالبت مرارا بالضغط على إسرائيل لإعادة تشغيل معبر رفح البري.

تفاقمت الأزمة الإنسانية للعالقين بشكل اطرادي مع بداية الأسبوع الأول من شهر يوليو/تموز وبدأت مجموعات منهم بالتقدم بطلبات إغاثة إلى الهلال الأحمر المصري الذي قام بصرف معونات غذائية عاجلة لهم. كما أقامت محافظة شمال سيناء ثلاثة مخيمات لتؤوي ما يقارب خمسمائة عالق فلسطيني تقطعت بهم السبل ولم يجدوا مكانًا يأوون إليه أو سقفًا يحميهم من حرارة الصيف الحارقة في منطقة صحراوية.

على إثر هذا التدهور في أوضاع العالقين، ونظرًا لتدخل أطراف للضغط من أجل فتح المعبر، ولأن قضية العالقين أصبحت العنوان الأول في الصحف وعلى الفضائيات العربية والعالمية، كان لا بد من إيجاد حل توافقي بين الأطراف يضع نهاية سريعة لهذه المعضلة الإنسانية. توصلت الأطراف إلى حل مرحلي تمكن مئات العالقين من العودة إلى أهاليهم في القطاع بدخول العالقين عبر معبر العوجا (نتسانا)، فدخل في اليوم الأول لفتح المعبر مائة شخص من الحالات الإنسانية العاجلة، وفي اليوم الثاني ثلاثمائة شخص، وفي اليوم الثالث ألف، وهكذا دواليك. لكن بقي بعض العالقين الذين رفضت السلطات الإسرائيلية دخولهم موجودين على الأراضي المصرية دون حل يمكنهم من العودة. ولعل أكثر فصول إغلاق المعبر إيلاما هي تلك المتعلقة بحركة المرضى الذين لا يقوون على السفر وتغص بهم المشافي المصرية وهي الوحيدة المتاحة لمرضى القطاع من أجل شفاء عضوي وربما لألم نفسي سببه عدم القدرة على المرور والسفر بسهولة ويسر.

إذا كانت قضية العالقين بدأت تجد لها حلا مع بداية شهر أغسطس/آب الماضي إلا أنه يخشى أن تتكرر إذا ما أغلق، وكلما أغلق المعبر من جديد ●

زياد أبو لبن*

(*) المستشار الإقليمي للجنة الدولية لبرامج المناهج المدرسية

سيارة في رفح ترزح تحت ثقل الانتظار

REUTERS

حلم بسيط بعد سنة على حرب هائلة

كشفت الحرب التي اندلعت في شهر يوليو/تموز 2006، والاقتتال بين إسرائيل وحزب الله، عن كارثة إنسانية عانى منها المدنيون على وجه الخصوص. فهي أدت إلى قتل حوالي 1200 لبناني و160 إسرائيليا خلال 34 يوما من الاقتتال. وبالرغم من توقف القصف، إلا أن آلاف المدنيين اللبنانيين مازالوا يعانون من تبعاتها الصحية والنفسية والاقتصادية في قراهم المدمرة في الجنوب والبقاع كما في الضاحية الجنوبية لبيروت. وفي الذكرى الأولى لهذه الحرب، يستعيد صحافي لبناني تجربته معها متسائلا: هل فعلا انتهت؟

AFP

جهاد بزّي*

في واحدة من جولات الهدوء، ذهب أبي ليتفقد بيتنا في الضاحية الجنوبية، وقد نزحنا عنه بعد أيام على بدء الحرب. أخذني معه. دخل يخطو ببطء فوق الركام، يتفقد الأضرار. يقلّب الأثاث المحطم ويشيل أشياء ويحطّها. خرج من البيت ويداه فارغتان. دخل إلى البيت المجاور في الطابق نفسه. والده، جدي، يجلس في سريره وجدتي بالقرب منه. كان كيل أبي قد طفح من والديه المسنين اللذين تمسكا برفضهما مغادرة بيتهما معنا. هذه المرة لم يجرؤا على مواجهته. قامت جدتي معه، أما جدي، المقعد، فحمله أبي على ظهره، ونزل به على الدرج الطويل. مشى أمامي. كنت أرى ظهره محنيًا وساعدا جدّي تطوقان عنقه. دمعت عيناي، ورفعت رأسي بهذا الرجل الذي يشيل أباه. لم أكن قادرًا على المساعدة. كنت ولدًا في الثانية عشرة، وكانت تلك الحرب واحدة من حروبنا الأهلية في منتصف الثمانينيات. يومها، وأبي ينزل الدرج بأبيه، رأيت الحرب للمرة الأولى في حياتي، وكرهتها.

♦♦♦

عند الخامسة صباحًا أفيق مذعورًا على صوت الهاتف. منال، زوجتي، تتصل بي من قريتها البقاعية. تقول إن الضاحية تتعرض للقصف. أقفل الخط معها وأتصل مرة بعد مرة، بالبيت. لا أحد يجيب. فجأة يرن الهاتف مرة أخرى. شقيقي من الولايات المتحدة يتصل ليطمئن. والدتي ووالدي في البيت. أعود لأتصل. لا إجابة. يا الله! لا أدري بعد أي محاولة أجاب أبي. نزل صوته بردًا في قلبي. لقد أيقظته من النوم. القصف بعيد. أبدأ بالكلام ويحاول أن يتردد في أخذ قراره. لكن إصراري الذي كاد يتحول إلى صراخ، جعله يقول بأنه سيأتي إلى بيتي في بيروت، والذي يفترض أنه أكثر أمانًا. أتى وأمي وأخي وعائلته التي تقطن في بيت من المبنى نفسه. شقيقي الآخر كان قد غادر في الليل السابق للضربة الأولى. شقيقي الثالث غادر وعائلته من بيته الملاصق للمربع الأمني في "حارة حريك"**. كل إلى بيت قريب. نحن في اليوم الثالث على حرب تموز (يوليو) 2006. لم نكن نعلم ما الذي ينتظر لبنان. لكن كل شيء كان يوحي بأن حربًا هائلة قد وقعت..

♦♦♦

عمره ثمانية وأربعون يومًا. هذا الصبي الأحمر كتفاحة. في الرابع والعشرين من مايو/أيّار 2006 جعلني أبًا إلى الأبد. جاد. جعلني أبًا في الحرب. هذه مسؤولية أشد وطأة. عشت الحروب السابقة ولدًا يأخذه والده من يده إلى الهروب تلو الهروب. غيري حمل مسؤوليتي. هذه المرة أنا المسؤول. إلى أين آخذ جاد من هذه الحرب؟ وقائع الحرب تقول إن البيت آمن، لكنها الحرب. لا تنظر حولها. حيث تمشي تسحق. وأيامنا الثلاثة والثلاثون كانت لا تحكى. كل شيء كان فظيعًا. كل شيء كان أكبر من طاقتنا على فهمه. النزوح وحده كان مشهده هائلًا. أن يمتلئ مبنى متهالك في شارع فرعي من بيروت بالنازحين، معناه أن النازحين كانوا يبحثون في كل زاوية عن سقف ينامون تحته. النازحون ملأوا لبنان. الرجل الذي وصل إلى إحدى المدارس ليلًا، وجلس ينتظر غرفة له ولعائلته، راح يبكي وهو يقسم أنه لم يخرج من بيته مرة في حياته، هو الرجل السبعيني. هذه الحرب كانت فوق احتمالنا والبلد الذي له حدود مع عدو، فتح كفيه عاجزًا عن استيعاب مثل هذه الكارثة الجماعية. لم يحضر نفسه يومًا بعدما انتهت الحرب عام 1990. كان لبنان كتلميذ لم يتحضر أبدًا للامتحان، وجاءته أصعب الأسئلة. هذا العجز ضاعف من المأساة.

كانت الصور كثيفة، تصفع وجوهنا كيفما التفتنا. صور الرجال والنسوة في حديقة الصنائع العامة. صور الشبان المتعرقين ينظرون في الفراغ. هذه كانت صعبة. ما هو أصعب كان الأطفال. صورهم هي الأصعب دائمًا. في نزوحهم، في نومهم، وفي انتشالهم من تحت الأنقاض. يكذب كل أب حين يقول إن مخيلته لم تفرض عليه المقارنة بين ما يراه وبين طفله الذي في قلبه. حاولت ألا أقارن وعجزت. وكنت كلما رأيت هذه الحرب، أرتجف خائفًا من مخيلتي.

♦♦♦

الحرب ليست كرة جليد، تكبر كلما تدحرجت. الحرب تبدأ كبيرة جدًا ثم تصغر إلى أن تتلاشى. هكذا أظن. غير أن الحرب على لبنان كانت كرة جليد. ظلت تكبر وتكبر حتى اليوم الثالث والثلاثين. خط تصاعديّ مرعب. لن أناقش في القوانين التي يفترض بالدول أن تخضع لها في الحروب. الدرس الأول في حرب الصيف الماضي هو عدم احترام إسرائيل للكثير من القوانين.

العدد الهائل للمدنيين القتلى شاهد. فرض نزوح السكان شاهد. دمار الضاحية الجنوبية والجنوب وبعلبك شاهد.. ثم قطع جنوب الليطاني عن شماله نهائيًا في الأيام الأخيرة للحرب، وفرض منع التجول كليًا في جنوب الليطاني شاهدان أيضًا. هناك دولة قررت، ببساطة، أن تسحق بلدًا بأكمله، وإن كانت الحجة إنهاء "حزب الله". يوم واحد من الهدنة بعد مجزرة قانا، كشف عن نموذج للمأساة. خروج المحاصرين من بنت جبيل وجوارها وروايتهم الفظيعة عن هروبهم من بيت إلى بيت والطائرة المقاتلة في إثرهم. علبة البسكويت التي ظلت تقسم على أربعة أطفال جائعين في ملجأ طوال أيام ولا طعام لهم غيرها. الناس الذين ناموا بالقرب من جثث أقربائهم. اللحظات التي تلا فيها الناس صلواتهم وهم يظنون أنها الأخيرة. كل هذه كانت بعضًا مما سيجيء لاحقًا، في اليوم الأول على نهاية الحرب.

كالسائرين في كابوس، مشينا في القرى صباح وقف إطلاق النار. هل حقًا يمكن أن يحدث مثل هذا؟ حين نظرت إلى المرأة الممددة على حمالة الصليب الأحمر اللبناني في بنت جبيل لم أعرف ما إذا كانت حية أم ميّتة. كان وجهها شاحبًا وعيناها مغمضتان. لكن ما جعلني أعتقد أنها ميتة هو الذباب النافق الملتصق على وجهها. لكن حين ناداها عنصر الصليب الأحمر فتحت عينيها قليلًا. يا إلهي. كيف أمضت ثلاثة وثلاثين يومًا على هذه الحال؟ مقعدة، وممددة بالقرب من ركام الغرفة التي إخترقها صاروخ. وحيدة وقد قتل زوجها المدني في مكان آخر من المدينة في أيام الحرب الأولى. ظننت أن هذا أقسى ما سأراه. لكن الحكايات توالت. ظلت تمطرنا بما لا يصدق طوال شهرين بعد الحرب. ظللنا في جريدة "السفير" نروي قصص الحرب طوال أكثر من شهرين على نهايتها. لم تنته الحكايات. كان سهلًا الوقوع عليها. يكفي الالتقاء بسيدة متشحة بالسواد تمشي في شارع القرية وسؤالها لتحكي عن أبناء وأحفاد قتلوا جميعًا في لحظة واحدة. وكان يمكن في نهار واحد أن تجمع أربع قصص من أربع قرى مختلفة: الأولى لرجل فقد زوجته وأولاده الأربعة. الثانية لآخر فقد شقيقه وكل أولاده وحفيديه. الثالثة لرجل لم يعد شقيقه ولا عائلة شقيقه موجودين، وبينها طفلة عمرها عشرة أيام فقط. الرابعة لبيت سقط فوق أصدقاء يسهرون فسحق رب البيت وزوجته وابنه وأصدقاءه الأربعة. نشر كم هائل من تلك الحكايات في "السفير" حينها. ولم نغطِ إلا جزءًا من كل الحرب.

♦♦♦

انتهت الحرب. عاد أبي وأمي إلى بيتهما. وعاد إخوتي إلا الثالث الذي سقط بيته وانتقل إلى بيت آخر. عدنا إلى حيواتنا ومرت سنة. لكن، هل حقًا انتهت الحرب، في داخلي على الأقل؟ لا أعتقد. جاد لم يعد تفاحة حمراء. صار عمره سنة وشهرين. ذهب اللون الأحمر وحل محله الأبيض. طال شعره الكستنائي الفاتح وتجعد في عقد كبيرة وناعمة. ابتسامته تفرج عن أسنان صغيرة قليلة. يتعلم المشي. يمد ساعديه الصغيرين أمامه متهاديًا وهو يمشي مسرعًا كي يصل إلى الكنبة فيرمي ساعديه ووجهه عليها ثم يلتفت ليبحث عن ضحكاتنا وتصفيقنا. يكبر يومًا بيوم. أحميه بقلبي. أحلم له حلمًا بسيطًا وإن بدا يشبه شعارًا مكررًا وتافهًا. أحلم له بأن لا يخاف على ابنه من حرب، كما خاف أبي وكما خفت أنا. أحلم له بعالم أكثر عدلًا. أحلم له بعالم أكثر سلامًا ●

(*) صحافي لبناني
(**) منطقة في الضاحية الجنوبية لبيروت

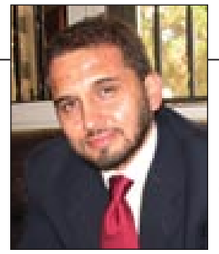

الأمير مرعد الحسين

رئيس الهيئة الوطنية

لإزالة الألغام في الأردن

تحديات كثيرة أمام الدول العربية ودعوة لانضمامها لاتفاقية "أوتاوا"

يتحضر الأردن لاستقبال الاجتماع الثامن للدول الأطراف في اتفاقية "أوتاوا" لحظر الألغام في نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل. في وقت لم تنضم بعد إليها سوى ثمان من الدول العربية. "الإنساني" التقت سمو الأمير مرعد الحسين، الرئيس المعين للاجتماع الثامن للدول الأطراف، ورئيس مجلس إدارة الهيئة الوطنية لإزالة الألغام وإعادة التأهيل. والهيئة الوطنية هي الجهة المسؤولة عن إزالة الألغام ومخلفات الحرب في الأردن، والتوعية بمخاطرها.

حاورته: **رباب الرفاعي** *

«الإنساني»: برأيكم، ما هي أبرز التحديات التي تواجه مسألة حل قضية الألغام ومخلفات الحرب غير المنفجرة في منطقة الشرق الأوسط؟

الأمير مرعد الحسين: هذا السؤال حساس ومهم جدا... المملكة الأردنية الهاشمية هي واحدة من ثماني دول عربية انضمت إلى اتفاقية "أوتاوا" حتى الآن. وتعاني معظم الدول العربية من مشكلة الألغام أو مخلفات الحرب، لذا هنالك تحديات كبيرة تواجهها. إذ إن على الدول العربية التي لم تنضم إلى الاتفاقية البدء بالتعامل مع هذه المسألة الإنسانية بجدية. فنحن لا نزال نخطو الخطوات الأولى في هذا المجال.

ما هو حجم مشكلة ضحايا الألغام ومخلفات الحرب غير المنفجرة في المنطقة العربية؟ وكيف يمكن حث وتشجيع مزيد من الدول العربية للانضمام لاتفاقية "أوتاوا"؟

هنالك آلاف الأشخاص المصابين وغيرهم الذين يعانون من هذه المسألة. ما أستطيع أن أقوله هو أن مشكلة الألغام ومخلفات الحرب موجودة في العراق مثلا منذ الثمانينيات، وهنالك دول عربية أخرى تعاني منها لكن من الصعب تحديد عدد الضحايا. بحسب "مرصد الألغام"** Landmine Monitor، هناك ما بين 15 ألفا إلى 20 ألف ضحية كل عام وبمعدل إصابة كل 20 دقيقة، لكن وبصراحة يصعب تأكيد هذا الرقم.

وخلال المؤتمر السابع للدول الأطراف في أيلول من العام 2006، تقرر الإعلان عن استضافة الأردن للمؤتمر الثامن للدول الموقعة على اتفاقية "أوتاوا" لحظر الالغام، وسيعقد هذا المؤتمر في شهر تشرين الثاني القادم. هذه إحدى الخطوات التي اتخذت لطرح الموضوع وتسليط الضوء على مشكلة الألغام وتشجيع الدول العربية للانضمام إلى الاتفاقية. فقد لاحظنا أنه ليس هنالك اهتمام كاف بهذا الموضوع. وقد قسمت أجندة المؤتمر إلى خمسة أجزاء حيث سيتناول المشاركون موضوع إزالة الألغام ومساعدة ضحاياها والتخلص من مخزون الألغام ونشر المعرفة بهذه المشكلة عن طريق عولمة الاتفاقية ومواضيع عامة أخرى حول هذه المسألة. ونتمنى أن تساهم التغطية الإعلامية الواسعة لهذا المؤتمر في تسليط الضوء على ظاهرة الألغام وأن يشجع المؤتمر الحكومات العربية على تناول هذه القضية التي ليست حتى الآن موضوعا مطروحا لدى بعض الدول العربية. ومن الجدير ذكره أن هنالك أسبابا عدة لعدم انضمام الدول العربية لهذه الاتفاقية، منها قلة المعرفة بهذا الشأن.

الألغام ومخلفات الحرب غير المنفجرة لها عواقب إنسانية جسيمة. كيف برأيكم تنعكس هذه المشكلة اجتماعيا واقتصاديا على المجتمعات المختلفة؟ وما هي الحلول التي ينبغي اعتمادها لدعم الأشخاص المصابين، وكيف يمكن أن تغير من حياتهم؟

هذا سؤال كبير ومهم جدا أيضا. فالمسألة هي مسألة حق الشخص بتلقي العلاج، سواء أكان ذلك الشخص ضحية لغم أرضي أو قنبلة عنقودية بترت ساقه مثلا، أو شخص بترت ساقه بسبب مرض السكري على سبيل المثال. في الحالتين لا يجوز

الكاريكاتور: عماد حجّاج

التمييز بينهما.

بداية ينبغي التأكيد على أن لكل فرد احتياجات خاصة ومن المهم أن يتوفر له حق العلاج ليعيش حياة كريمة. في الأردن وضعنا قانونا لرعاية الأشخاص الذين يقعون ضمن هذه الفئة، وباعتقادي أن كل دولة يجب أن تساعد الأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة ليعيشوا حياة سعيدة وكريمة، فهذه ليست مسألة خيرية بل مسألة حقوق.

أما على نطاق أوسع، فإن تطهير الأراضي من الألغام يجعل من الممكن الاستفادة منها للزراعة وغيرها من المشاريع (إنشاء المستشفيات والمدارس وغيرها)، أي إعادة الحيوية إلى المجتمعات. علينا ألا ننسى أن العديد من الدول التي تواجه مشكلة الألغام ومخلفات الحرب هي دول فقيرة يمكن أن تغير إزالة الألغام حياة سكانها بشكل ملحوظ.

ما هي الإجراءات التي تتخذها الحكومات المختلفة لمساعدة ضحايا الألغام ومخلفات الحرب؟ وهل يمكن عمل المزيد برأيكم؟ وكيف يرى سموكم دور المجتمع المدني والمنظمات المحلية والدولية في هذا المجال؟

من الضروري خلق حوار على أعلى المستويات لتشجيع القادة لاتخاذ قرارات جذرية في التعامل مع هذه القضية الإنسانية. هنالك طبعا دول عربية لا تعاني من مشكلة الألغام، لكن يمكنها أن تساعد الدول الأخرى. ويمكن معالجة قضية الألغام بتوفر الإرادة اللازمة والدعم المادي، فهذا موضوع جدير بالاهتمام.

في الأردن القضية إنسانية، فخلال السنة الماضية، قتل وجرح ما يقرب من ستة عشر شخصا بسبب مخلفات حربية. وتعمل الهيئة على تشكيل لجنة لوضع خطة للتعامل مع الموضوع.

وقد مضى عشرة أعوام على إقرار اتفاقية "أوتاوا" لحظر الألغام وساهمت دول كثيرة بمئات الملايين من الدولارات حتى الآن لإزالة الألغام والحد من آثارها. ومن المهم أن تتحرك الدول التي هي بحاجة إلى الدعم المادي للاستفادة مما يمكن توفيره من المساعدات الآن قبل أن تنفذ. فهذه قضية إنسانية وينبغي بذل الجهود لحلها.

ما هو حجم مشكلة الألغام ومخلفات الحرب غير المنفجرة في الأردن، وكيف تقيمون التجربة الأردنية في هذا المجال؟

بدأ الأردن بإزالة الألغام في العام 1993. فبحسب تقديرات القوات المسلحة الأردنية كان هنالك أكثر من 300 ألف لغم. أما اليوم، وبحسب تقديراتنا في الهيئة الوطنية، لم يتبقَ سوى أقل من 130 ألف لغم، أي أنه تمت إزالة حوالي ثلثي الألغام في الأردن وبذلك حققنا إنجازا كبيرا. وبفضل الله، استطاع الأردن إيجاد الدعم اللازم لإنجاز مشاريع الإزالة. ففي بداية الأمر كان الجيش الأردني هو الطرف الوحيد المسؤول عن عمليات إزالة الألغام في المملكة؛ لكن قبل سنتين تقريبا، بدأنا نتلقى الدعم من مؤسسات أجنبية مثل "الجمعية النرويجية للمساعدات الشعبية" (NPA) وهي منظمة غير حكومية قامت بإزالة الألغام في جنوب البلاد حيث سلمت ما يقارب الـ 115 ألف متر مربع من الأراضي الخالية من الألغام إلى الهيئة الوطنية في شهر أبريل/ نيسان الماضي. وفي الوقت الحاضر، يعمل سلاح الهندسة الملكي الأردني على تطهير خمسة حقول ألغام شمالي البلاد (منطقة غور الأردن) الأمر الذي سيؤدي في النهاية إلى تسليم 150 ألف متر مربع إلى الهيئة الوطنية.

وآخر موعد لإنجاز العمل بأكمله في الأردن هو شهر مايو/أيار من العام 2009، أي أنه لم يتبق سوى أقل من سنتين. ومع أننا أنجزنا الكثير حتى الآن، إلا أنه لا يزال أمامنا الكثير أيضا من التحديات ●

(*) مسؤولة الإعلام في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في عمان

(**) "مرصد الألغام" أسسته الحملة الدولية لحظر الألغام (ICBL) في العام 1998 من أجل مراقبة تطبيق اتفاقية "أوتاوا" لحظر الألغام التي أقرت في العام 1997. كما أنه يساعد المجتمع الدولي في التصدي للمشاكل الإنسانية التي تسببها الألغام.

الاجتماع الثامن للدول الأطراف في اتفاقية حظر الألغام

ينعقد في السابع عشر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني المقبل في عمان الاجتماع الثامن للدول الأطراف في اتفاقية حظر الألغام في الذكرى العاشرة لإبرام الاتفاقية في أوسلو وقبل أسبوعين من حلول الذكرى العاشرة من تاريخ إتاحة الاتفاقية للتوقيع في أوتاوا. وهو الاجتماع الأول من نوعه الذي يعقد في منطقة الشرق الأوسط.

وقد وقعت حتى الآن مائة وأربع وخمسون دولة على هذه الاتفاقية، كما تم خلال السنوات العشر الماضية تدمير ما يقرب من 40 مليون لغم مضاد للأفراد حول العالم. بالإضافة إلى ذلك، قامت سبع من الدول الأطراف بالإبلاغ عن قيامها بكامل التزاماتها المترتبة عليها بموجب المادة "5" المتعلقة بإزالة الألغام، بينما تم تحقيق تقدم ملموس بهذا الاتجاه من قبل بقية الأعضاء. وقد نجحت الاتفاقية في وضع معايير جديدة خاصة بقيام أي اتفاقية تتعلق بنزع السلاح أو مراقبة التسلح بمنح ضحايا هذه الأسلحة الاهتمام الذي يستحقونه.

ويهدف المؤتمر إلى إحياء الاهتمام العالمي بمشكلة الألغام والطرق التي اعتمدتها الاتفاقية لمواجهتها. وفرصة لإعادة تأكيد التزام الدول الموقعة على الاتفاقية بتطبيق بنودها. كما يشكل المؤتمر أيضا فرصة لزيادة الاهتمام بين دول منطقة الشرق الأوسط بهذه الاتفاقية وحقيقة التحديات التي تواجه تطبيقها وبالأخص الطرق الناجحة وغير المكلفة التي يمكن اعتمادها للتغلب على مثل هذه التحديات ●

AFP

REUTERS

الانتهاكات تتزايد ضدهم في مناطق النزاع

الحاجة لمعاهدات دولية تحمي الصحافيين

آلان جونستون مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في غزة يوم الإفراج عنه بعد اختطاف دام حوالي الأربعة أشهر

كان الرئيس الفلسطيني محمود عباس في حيرة من أمره عندما قابلناه. قال إن الحيرة كانت تمزقه حول ما يتعين عليه فعله لتأمين إطلاق سراح الصحافي بهيئة الإذاعة البريطانية **آلان جونستون** الذي كان مختطفا حينذاك. قال **عباس** لوفد من المعهد الدولي للصحافة الذي زاره في مقره برام الله في الفترة ما بين 4 و 7 يونيو/ حزيران: "**كنا نريد استخدام القوة، ولكن البريطانيين طلبوا عدم اللجوء إلى ذلك لكي لا نخاطر بحياته**".

كان بإمكان السلطة الفلسطينية بالطبع اللجوء إلى تدابير عدة أخرى تخلو من استخدام القوة إذا أرادت

في الثاني عشر من شهر مارس/آذار 2007 اختطف الصحافي البريطاني ومراسل "هيئة الإذاعة البريطانية" في غزة، آلان جونستون، من قبل مجموعة مسلحة. غير أن النهاية السعيدة لهذه الحادثة، والمتمثلة بإطلاق سراح جونستون في الرابع من يوليو/ تموز، بعد حوالي الأربعة أشهر من احتجازه، جاءت لتلقي الضوء على الكثير من النهايات التعيسة لصحافيين آخرين وتجعل البعض يطالبون بوضع قانون دولي خاص لحماية الصحافيين على غرار القانون الدولي الإنساني.

التوصل إلى إطلاق سراح الصحافي المختطف. لقد وفر صراع القوى الدائر في غزة بين كل من حماس وفتح المناخ الخصب "للبلطجية" المحليين لاحتجاز صحافيين أجانب وطلب فديات ضخمة. فقد اختطف صحافيون آخرون وأطلق سراحهم بعد دفع فدية كما أوردت الأنباء، أما اختطاف الصحافي **جونستون** في غزة والذي تزامن مع تكوين حكومة الوحدة الوطنية (فتح – حماس) فقد كان يعني أن كلا الطرفين لم يرد أن يُشاهَد وهو يدفع الفدية. ونتيجة لذلك استمر احتجاز **جونستون** لشهور عدة. وجرى إطلاق سراحه نتيجة لانتهاء النزاع الداخلي الذي خرج منه

أحد الجانبين – وهو حماس – منتصرا.

والأمر المثير للقلق في حالة **جونستون** وعشرات الصحافيين الذين لم يكونوا محظوظين مثله هو أن الحكومات والميليشيات وأفراد الجريمة المنظمة لا يؤرقهم القبض على صحافيين وتعذيبهم وترويعهم وحتى قتلهم. يقول المثل العربي: "لو كان القاضي عدوك، لمن تشكو؟". في أوقات الصراع الداخلي أو النزاع المسلح ليس من المتوقع أن تُردع مثل هذه العمليات لمجرد أن أحد أطراف النزاع يطالب بذلك أو يتحدث عنه. إن هذه العمليات لا يمكن ردعها إلا إذا نصت على ذلك معاهدات دولية معرفة تعريفا لا لبس فيه وقابلة للتنفيذ.

ولا توجد حتى الآن اتفاقية دولية محددة أو قانون دولي محدد يتناول الانتهاكات ضد الصحافيين على وجه الخصوص. قد يكون صحيحا أن المادة (19) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تعد الحصول على معلومات وتبادلها حقا من حقوق الإنسان، ولكن لا يوجد إلا أقل القليل في القانون الدولي الإنساني مما يتناول الصحافيين، ويجعل من الهجوم عليهم جريمة يُعاقب من يرتكبها على مستوى القانون الدولي.

ونتيجة لذلك نجد أن الأطراف في نزاع مسلح لا تبالي باستهداف أفراد من الصحافة أو المؤسسات الإعلامية أو تعطيل تدفق المعلومات رغم أنه يضر بقضيتها. ونظرا لأن النزاعات المسلحة تفرخ سلوكا غير منطقي من قبل الأطراف الأساسية فيها، ونظرا لأن المجتمع اليوم يطالب دائما بتغطية حية وبيانية لمناطق النزاعات المسلحة، فالأمر يتطلب إغاثة قانونية من المجتمع الدولي، بعد أن أدت قلة الاهتمام بتوفير ضمانات للصحافيين إلى ارتفاع مستويات الهجوم عليهم بشكل ينذر بالخطر.

وقد سجلت منظمة "صحافيون بلا حدود"، ومقرها باريس، ارتفاعا خطيرا في الانتهاكات التي ترتكب ضد صحافيين، لاسيما في مناطق النزاعات المسلحة. فقد قُتل في العام 2006 ما لا يقل عن 81 صحافيا في 21 بلدا أثناء قيامهم بعملهم، أو بسبب آرائهم. ويعد هذا أعلى رقم يُسجل بعد العام 1994 الذي قُتل فيه 103

داود كتاب*

في العام 2006 قُتل أكثر من 81 صحافيًا في 21 بلدًا أثناء قيامهم بعملهم

لم تنته قصص العديد من الصحافيين العراقيين نهايات سعيدة كقصة آلان جونستون

AFP

(*) محرر النسخة العربية من كتاب "جرائم الحرب – ماذا ينبغي على الجمهور معرفته" الذي يجمع سلسلة من المقالات كتبها صحافيو الحرب. وهو أيضا مدير معهد الإعلام الحديث في جامعة القدس، ومؤسس "عمان نت" أول إذاعة عربية على شبكة الإنترنت www.AmmanNet.net

صحافيين (نصفهم في الإبادة الجماعية التي وقعت في رواندا، ونحو 20 في الحرب الأهلية في الجزائر، واثنا عشر في يوغوسلافيا السابقة). كما قُتل في العام 2006 أيضا 32 من المساعدين الإعلاميين (سائقون ومترجمون وفنيون وحراس وغيرهم). أما في العام 2005، فقد سجلت "صحافيون بلا حدود" مقتل 63 صحافيا وخمسة من العاملين الإعلاميين.

ولا يبدو أن العام 2007 سيكون أفضل حالا، فقد ذكرت "لجنة حماية الصحافيين"، التي تتخذ من نيويورك مقرا لها، ذكرت على موقعها على الإنترنت أنه حتى 31 يوليو/ تموز كان 30 صحافيا قد قُتلوا في أنحاء العالم أثناء قيامهم بواجبهم.

يقول موقع "صحافيون بلا حدود" على الإنترنت أن العراق صنف كأكثر بلدان العالم خطورة على الإعلام للعام الرابع على التوالي. فمنذ بدأ النزاع في العام 2003، قُتل فيه 139 صحافيا، وهو ضعف عدد الصحافيين الذين قُتلوا في حرب فيتنام التي دامت عشرين عاما (قُتل 63 صحافيا فيما بين عامي 1955 – 1975). وكان نحو 90 في المائة من هؤلاء الضحايا من بين الصحافيين العراقيين. ولم تجرَ تحقيقات في حالات القتل إلا فيما ندر، وحتى في الحالات التي جرت فيها تحقيقات لم يكتمل أي منها. وأجرت قوات الاحتلال الأميركية تحقيقات ظاهرية في الحالات التي قتلت فيها قواتها صحافيين يعملون لصالح الإعلام الغربي. ولكن لم يتم أبدا القبض على أي فرد أو إلقاء المسؤولية على أي شخص عن إطلاق نار تسبب في وفاة صحافيين أجانب يعملون في العراق. ولا توجد معلومات عن أي تحقيقات أجراها الأميركيون بشأن الحالات التي قُتل فيها صحافيون عراقيون (لا يعملون لصحف أجنبية).

كما وقعت جرائم بحق صحافيين في بلدان لا تشهد مستويات كبيرة من العنف. وفي هذا الصدد، منحت منظمة اليونسكو الجائزة العالمية لحرية الصحافة **جيليرمو كانو** هذا العام إلى الصحافية الروسية الراحلة **أنا بوليتكوفسكايا**، وهذه هي المرة الأولى التي •••

••• تُمنح فيها الجائزة بعد الوفاة. فقد أُطلقت عليها النار خارج شقتها في موسكو في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول من العام 2006. ويعتقد كثيرون أنها دفعت حياتها ثمنا للتحقيقات التي نشرتها عن الوضع في الشيشان. إن الجرائم ضد الصحافيين ترتكب في شتى أنحاء العالم، ولا تجرى تحقيقات جادة بشأنها، ولا يتخذ أي إجراء قانوني لردع القتلة.

تقول منظمة هيومان رايتس ووتش **إن القانون الدولي الإنساني العرفي ينص على أن الصحافيين غير المشاركين مباشرةً في الأعمال العدائية في مناطق النزاع المسلح يعدون مدنيين**. وفي بيان صادر عن المنظمة نفسها تقول إن تعمد إساءة استغلال هذا الوضع من الحماية من أجل زعزعة ثقة أفراد العدو في محاولة لقتلهم أو إصابتهم أو القبض عليهم، يرقى إلى مستوى أعمال الغدر، وهي انتهاك خطير للقانون الدولي الإنساني.

وتتضمن هذه المقولة الصادرة عن **هيومان رايتس ووتش** مشكلة صغيرة للمجتمع الصحافي الذي يطالب المجتمع الدولي بإصدار قوانين ومعاهدات ملزمة لضمان سلامة الصحافيين، وإلقاء المسؤولية القانونية على الأفراد أو الميليشيات أو الدول إذا انتهكتها. وتكمن المشكلة في تعريف من هم الصحافيون. ويعتقد بعض الخبراء القانونيين بوصفهم ممثلين للجمهور العام أن الصحافيين لا ينبغي أن يتمتعوا بأي حماية إضافية أكثر مما للمدنيين العاديين، وإلا، كما يقول هؤلاء الخبراء، ستكون هناك ضرورة لاستحداث قوانين خاصة لأفراد فئات عديدة أخرى ممن قد لا يكونون في مأمن من الخطر في أوقات النزاعات المسلحة. ويزداد تعقد المشكلة في الوقت الحاضر مع فتح فرص النشر أمام الجميع. فمع انتشار المدونات والتقارير المنشورة على الإنترنت، لم يعد من السهل تمييز الصحافيين المتخصصين الذين يعملون لهيئات إعلامية معروفة، عن المواطنين الذين علموا أنفسهم الصحافة ويستخدمون الإنترنت لنشر أعمالهم في صورة نصوص أو صور أو أنساق سمعية وبصرية.

قد يكون هذا صحيحا، إلا أن أعضاء الصحافة المستقلين الذين يكونون في أغلب الأحيان أول من يصل إلى مناطق الاقتتال، يضطلعون دون شك بمسؤولية إضافية. فهم يحملون على كاهلهم المخاطرة بتغطية النزاعات المسلحة، ويصبحون – كصحافيين ومصورين – أعين وآذان الناس كلها. وغالبا ما يكون الصحافيون هم الشاهد على جرائم الحرب التي ترتكب تحت غطاء المواجهة العسكرية ●

رائع أن يجد الإنسان نفسه حرا طليقا بعد شهور من الخوف والقلق بين جدران الأسر. غير أن التعايش مع هذه الحرية والتخلص من أشباح الماضي ليس بالأمر السهل. فالعزلة تفرض تجربة فريدة ونظرة جديدة للحياة. هذا ما تعلمه "براين كينان" أستاذ اللغة الإنكليزية الأيرلندي الذي عاش الأسر في لبنان مدة أربع سنوات ونصف حتى إطلاق سراحه في أغسطس/آب من العام 1990. وهو يحاول في مقال نشرته صحيفة "الغارديان" البريطانية في 9 يوليو/ تموز 2007 أن يشارك ألان جونستون، الصحافي في هيئة الإذاعة البريطانية، هذه التجربة ويقدم له النصح بعد أن أُسِرَ جونستون في غزة مدة 114 يوما.

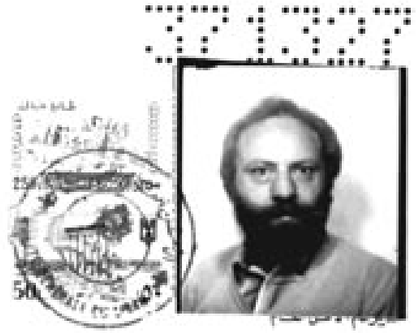

صورة لكينان قبل اختطافه في العام 1986 مأخوذة من بطاقة إقامته في لبنان كأستاذ بالجامعة الأميركية في بيروت

فجأة تجد نفسك حراً لكنك لستَ مهيأً لذلك

براين كينان

يبدو أن الحياة أصبحت غريبة بالنسبة لـ **ألان جونستون**. فبعد أن كان ينقل الأخبار على مدى سنوات طويلة، ها هو الآن يتحول إلى خبر سار تتناقله وسائل الإعلام. إلا أن ذلك ليس التغيير الوحيد الذي طرأ على حياته وعليه الآن التعامل معه. فهناك تغييرات أخرى أقل وضوحا ولكنها أكثر حساسية وصعوبة. وإذا كان الفلاسفة يرون أن الحرية هي مفهوم غير محدد ومعقد فيبدو أن العيش بحرية يمكن أن يكون بالقدر نفسه من التعقيد بالنسبة لأسير سابق.

ربما يمكنني أن أسميها «الحرية الزائفة»: العيش في حجرة ضيقة لمدة أشهر، وعلى الأرجح في الظلام، مع إمكانية الاستماع فقط إلى المذياع كوسيلة فكرية وحيدة تعيد إليك زملاءك لفترة قصيرة، أولئك الزملاء الذين يعيشون في رعب وقلق وخوف إلى درجة تشعرك بالاختناق والعجز الكامل عن تغيير هذا الشعور. وحتى لو تحدثت مع حراسك لا يمكنك التطرق معهم إلى هذا الموضوع. ففي اللحظة التي تسلم فيها بخوفك، يضعف الهواء من حولك وتعم الظلمة المكان. على الأقل هكذا تبدو لك الأشياء.

هناك رجل يخفي وجهه وراء قناع أسود ويحمل في يده مسدسا به كاتم للصوت. يوجه المسدس إلى فمك قائلا: "بوم". أما أنت فتشعر بالغثيان وتسيطر عليك الرغبة في تحويل فوهة المسدس إلى صدر حامله وتتمنى في نفسك أن تكون الـ "بوم" رصاصة حقيقية. إلا أنك تكتفي بالجلوس هناك دون حراك وفي ثبات تام وأنت تحدق في عينيه وتتابع نظرات

السخرية البشعة التي تحملها. ثم ينتابه الضحك وينصرف من الحجرة وأنت تتساءل: إلى أي مدى ستتحمل فحشه هذا.

تسمع بعدئذ رسالة في المذياع. أحدهم يتحدث عنك. هناك شخص يهتم بك وتشعر بالرغبة في البكاء، لكنك لا تستطيع ترك دموعك تسقط، ليس لأنك لا ترغب بذلك، ولكن لأن جسمك غير قادر على ذلك. فالخوف يتملك روحك.

وأمام واقع الحياة هذه، تبدأ إدراك زيف الحرية. فعندما تطفو على السطح من جديد بعد الخروج من تعقيد الأسر، تجد أن الحرية وهمية بعض الشيء. ويبدو وكأنك تعيش في بعد آخر أو أنك أصبحت شخصا آخر. أما الأحضان والتصفيق والابتهاج والتمنيات فهي أمور رائعة تجعلك تشعر بأحاسيس خاصة. لكنك ترى كل ذلك ضربا من الجنون ولا تشعر بأنه يحدث لك أنت. ويجعلك الإعجاب تشعر أحيانا بالضعف الممزوج بقليل من الخوف. فهو ينطوي على عاطفة وأنت لم تحظ بالكثير منها فتترك نفسك لها لتغمرك وتشعر بالسعادة العارمة. وعلى الرغم من شعور ينتابك بأنك لا تستحق كل ذلك أو أنه كثير عليك، فأنت تتقبله بالكثير من الامتنان.

فعلى مدار عدة أشهر، عشت واقعا شديدا أليما وتعرضت لأشياء لا يمكن السيطرة عليها. فكان من الممكن أن تضرب أو تتعرض لما هو أسوأ من ذلك في أي وقت. فالعيش في ظل هذه الظروف يحملك ما لا طاقة لك به. ثم فجأة تجد نفسك حرا إلا أنك لست مهيأ لذلك. فتريد أن تهرب بعيدا عن هذه الحرية، فالأمر كله مرعب بالنسبة لك. وهناك الكثير من الزحام حولك، ناس هنا وهناك وضوضاء وأضواء وكاميرات.

والآن ترى التناقض، فالحرية تجلب الشهرة وذلك سجن من نوع آخر. أرى أنه كلما "أجبرت" على الحديث عن محنتك تظل أسيرا فكريا وعاطفيا. لقد استخدمت كلمة "إجبار" عن عمد. فالحرية الحقيقية تعني حرية الاختيار. والاختيار هو تاج الحياة. لقد عاش **ألان جونستون** في مكان لم يكن يحق له فيه تقريبا القيام بأي اختيار في أي شيء حتى فيما يخص حياته الشخصية. والآن سينعم بكل أنواع الاختيارات.

أعتقد أن هناك علاقة ما بين الظروف المتدنية واللاإنسانية للحبس وكيفية التعامل فيما بعد مع هذه الحرية التي حصلت عليها. أتذكر الآن الأسابيع الأولى من الحرية التي حصلت عليها قبل سنوات عدة بعد إطلاق سراحي كيف تبدل الحال من مكان خال من المشاعر الإنسانية إلى آخر تفيض فيه فجأة مشاعر الحب والإعجاب من قبل الجميع حيث تشعر وكأنك تعيش في وهم جميل وكأن قدميك لا تلامسان الأرض. لقد كان أمرا مغريا إلا أنه في هذه الظروف يتعين عليك البدء في إجراء اختيارات واتخاذ القرارات الخاصة بك قبل أن يجرفك التيار.

إن **ألان** شخص ذكي ويبدو في حالة نفسية وعقلية جيدة، لذا سيكون قادرا على تجاوز المرحلة الانتقالية سريعا ولكن دون استعجال. كثيرا ما سُئلت إن كنت قد عانيت من نوبات ذعر. لم أعان من ذلك إلا أنني أتذكر واقعتين بعد إطلاق سراحي بفترة قصيرة وكنت على وشك الإصابة بصدمة خاطفة وكأن صمامة كهربائية احترقت في نظام الترحيل العاطفي الخاص بي. لم يكن من الممكن وصفها بأنها نوبة ذعر، بل كانت أقرب إلى حالة من الذوبان المؤقت، لا أعلم من أين جاء ولم أكن أملك أي شيء حياله. فكان عليَّ أن أجلس وأن أنتظر أن يزول. ربما جاء نتيجة العودة المفاجئة إلى الحياة العادية. ينبغي السماح لبعض المشاعر بالخروج منك دون استعجال. وما يبعث على السخرية هو أنني أمضيت الكثير من الوقت في محاولة قتل الوقت أثناء الأسر، وعليك أن تفعل الأمر نفسه عندما تعود إنسانا حرا. إلا أنه عندما تكون حرا، ينبغي عليك أن تملأ وقتك وليس أن تقتله. والشيء الآخر الذي يبعث على السخرية هو أن الجميع يرغب في ذلك الوقت، الحراس باعتبارك أسيرا، والأشخاص الآخرون باعتبارك رجلا حرا الآن. لذا دعني أنصحك يا **ألان** أن تأخذ وقتك فالحرية تكمن في إيجاد التوازن المطلوب.

لا تندهش إذا وجدت طرقا جديدة لتمضية الوقت. أحد أصدقائي من الفنانين قال لي بعد مضي عدة أشهر على إطلاق سراحي أني أصبحت أملك "نظرة واضحة" جدا. لم أفهم قصده حتى شرح لي أني أصبحت الآن أنظر بتركيز شديد للأشياء بعد أن أمضيت أربع سنوات ونصفا في النظر إلى الحائط. لقد قال لي: " لا أتمنى أن أعيش ما عشته أنت لكني كنت أود أن أحظى بنظرتك للأشياء" وضحك، إلا أنني اكتشفت حقيقة كلامه بعد ذلك. فقد ذهبت للعيش في غرب أيرلندا وهناك كانت عيناي تنهلان من جمال المناظر الطبيعية الخريفية والسماء الواسعة والغروب... وكأن الحرية تنعكس على شاشة عرض كبيرة فكان المكان علاجيا بالنسبة لي.

اكتشفت أيضا أنني لست بحاجة لكثير من النوم واحتجت الكثير من الوقت لتطوير أسلوب طبيعي جديد للنوم. كنت أتمشى في الصباح الباكر أراقب العالم يعود للحياة وأترك نفسي للأمطار والرياح لتغسل أحاسيسي. واكتشفت أيضا أن الحرية منحتني اهتمامات جديدة. فلم أكن يوما مستمعا جيدا للموسيقى الكلاسيكية أو غيرها إلا أن حرماني منها لسنوات طويلة جعل أذنيَّ شديدتي الحساسية كما عينيَّ وسمحت لذلك أيضا أن يجرفني بعيدا.

لقد عاش **ألان** وعمل مع السكان الفلسطينيين لمدة طويلة. وهو قد يكون نجح في التحاور مع خاطفيه وإقامة بعض العلاقات معهم. الحال لم تكن كذلك بالنسبة لي. إذا كانت هذه الحال بالنسبة لـ **ألان**، فذلك يعني أن بإمكانه ترك الأشباح وراءه، ولكن عندما تكون هذه الأشباح غير مرئية لا ينبغي أن يقنع نفسه بأنها غير موجودة إن لم يكن قادرا على رؤيتها. ولكن إذا اخترت ألا تؤمن بها فستتركك بسلام.

الأمر المهم عندما تنعم بحريتك هو أن تبقي على العهود التي قطعتها على نفسك، طوال أيام عذاب الأسر الطويلة، حول ما ستفعله عندما تعود إليك حريتك في يوم من الأيام. ثم عليك تنفيذ هذه العهود. فحريتك الحقيقية هي في أن تفعل بها ما تريد. فلتفعل.

وأخيرا من الصعب التخلص من لقب "أسير سابق". ولن تتمكن من ذلك بالفعل. وبالتالي أقول لك باعتباري عضوا مؤسسا في نادي الأسرى السابقين، أهلا بك في نادينا ●

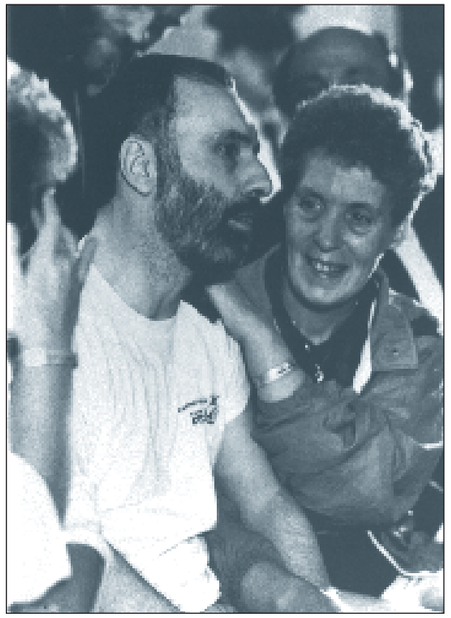

برايان كينان عند الإفراج عنه في العام 1990

8 يونيو / حزيران 1977، ستبقى هذه الذكرى هادئة نسبيًا ولن تحظى إلا بالقليل من مظاهر الحفاوة التي يتوقع أن ترافق عادة الاحتفال بمرور سنوات عديدة على مناسبة هامة. فلا يزال الحدث الذي يُحتفل به اليوم غير معروف كثيرًا وربما تساءل المشككون: لماذا يثار هذا الموضوع؟ إلا أن الاحتفال بمرور ثلاثين عامًا على اعتماد البروتوكولين الإضافيين الأول والثاني إلى اتفاقيات جنيف لعام 1949 يحيي ذكرى حدث أساسي في تطور كيفية خوض الحروب. فهذان البروتوكولان يمثلان أحد أهم الأسس القانونية الدولية التي ترتكز إليها حماية المدنيين خلال النزاعات المسلحة. ولهذا تستحق هذه الذكرى في ما تمثله تقديرًا حكيمًا يكون أقل ما يمكن تخصيصه لها.

ثلاثون عاما : قانون الحرب يصمد أمام امتحان الزمن

فيليب سبيري*

قبل ثلاثين عامًا، كان أهم إنجاز أحرزه البروتوكول الإضافي الأول، هو القواعد التي أرساها في مجال سير العمليات العدائية. ومن بين هذه القواعد المبدأ الأساسي القاضي بالتمييز بين المدنيين والمقاتلين وبين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية. فقد حظر هذا البروتوكول بشكل واضح الهجمات ضد المدنيين، أفرادًا كانوا أم مجموعات من السكان، والهجمات ضد "الأعيان المدنية". ونص أيضًا البروتوكول بوضوح على قاعدة أخرى ذات أهمية وهي: "حظر أعمال العنف أو التهديد به الرامية أساسًا إلى بث الذعر بين السكان المدنيين". ولا تتوقف لائحة الإنجازات عند هذا الحد.

فقد أدخل البروتوكول مفاهيم جديدة أثارت الجدل في حينها، بينما لم تعد كذلك اليوم، تتعلق بالوضع القانوني للمقاتل وأسير الحرب. فبالرغم من تحفظ بعض البلدان إزاء هذه التغييرات الجديدة، عبّرت هذه الأخيرة عن واقع جديد في العلاقات الدولية يتمثل في ظاهرة حرب العصابات. وتسبب الواقع نفسه بإثارة الجدل حول جانب آخر من المعاهدة هو تعريفها للنزاعات الدولية المسلحة والذي تم توسيعه ليشمل حروب تقرير المصير.

وبينما شكل البروتوكول الأول خطوة إلى الأمام في تكييف القانون مع متطلبات جديدة، فقد أتى البروتوكول الإضافي الثاني، الذي يكمّل المادة الثالثة المشتركة في اتفاقيات جنيف، كأول معاهدة من نوعها أبرمت خصيصًا لحماية المتضررين من النزاعات المسلحة غير الدولية. وقد شكلت أحكامه الخاصة بالضمانات الأساسية الممنوحة للذين لا يشاركون في القتال، ومعاملة من حرموا من حريتهم، والضمانات القضائية الممنوحة للأشخاص الذين يخضعون لمحاكمات جنائية، نقطة تحول في تطور القانون الدولي الإنساني. وقد أعطى البروتوكول الثاني مفهومًا قانونيًا لفكرة أصبحت اليوم مقبولة على نطاق واسع وتقضي بأن النزاعات المسلحة التي تدور داخل حدود بلد ما أمر يستدعي الاهتمام الدولي. ولهذه الغاية، أرسى البروتوكول قواعد هامة لحماية المدنيين من خطر العمليات العسكرية في النزاعات المسلحة الداخلية.

ولكن يحق للمرء حين ينظر إلى النزاعات الدامية التي تدور في العراق والسودان وكولومبيا، لكي لا نذكر إلا بعضًا منها، ويستذكر شبح الفظائع التي ارتكبت في رواندا والبلقان في التسعينيات أن يطرح السؤال التالي: "ما الفائدة من ذلك؟" ما نفع قانون الحرب إن لم يطبق ولا يتم تنفيذه؟

وللإجابة باختصار عن هذا السؤال، يمكن القول أن القيمة الفعلية للبروتوكولين الإضافيين لا تبرز كثيرًا في الخير الذي حققاه حتى الآن، بل تبرز أكثر في الشر الأكبر الذي ساعدا في الحيلولة دون وقوعه. فقد انضمت 167 دولة حتى اليوم إلى البروتوكول الإضافي الأول، و 163 دولة إلى البروتوكول الثاني، الأمر الذي يعني اعترافًا متزايدًا بأن للحرب حدودا، ليس أقلها ما يخص واجب الحرص على السكان المدنيين.

ومما لا شك فيه أن حوادث الانتهاكات الفاضحة للبروتوكولين وللقانون الدولي الإنساني بشكل عام كثيرة. فحملات الإرهاب ضد المدنيين واستخدام الاغتصاب كسلاح حرب وتجنيد الأطفال وإجبار الناس على النزوح – واللائحة طويلة– تشكل وللأسف، مظاهر معتادة في النزاعات الحديثة. وقد فرض استقطاب السياسات في العالم خلال القرن الواحد والعشرين عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، والتداعيات الإنسانية الخطيرة لما يسمى غالبًا "بالحرب العالمية على الإرهاب"، تحديات

أرشيف اللجنة الدولية للصليب الأحمر

توقيع اتفاقية جنيف في الثاني عشر من أغسطس/آب 1949

(*) مدير قسم القانون الدولي باللجنة الدولية للصليب الأحمر

هائلة. أما تكاثر وتجزيء الجماعات المسلحة غير التابعة للدول والتي قد لا تعير قانون الحرب إلا القليل من الاهتمام أو تتجاهله نهائيًا، فيطرحان تحديات أخرى.

ولكن، إذا كانت المساءلة القانونية قد شكلت في الماضي الاستثناء لا القاعدة خلال النزاعات، فإن ريحًا من التغيير بدأت تعصف وتقوى في هذا المجال بفضل وعي الجمهور المتزايد بأهمية القانون الدولي الإنساني.

فقد أدى ضغط الرأي العام والشعور الجماعي بالعار الذي انتاب الحكومات بسبب عجزها عن وقف المجازر في يوغوسلافيا السابقة وفي رواندا، إلى قيام المحكمتين الجنائيتين الخاصتين بهذين البلدين في أواسط التسعينيات. وبالرغم من القيود التي فرضت عليهما، فقد شكلت هاتان المحكمتان خطوة هامة إلى الأمام في مجال وضع حد لإفلات مجرمي الحرب من العقاب.

وقد جاء إنشاء المحكمة الجنائية الدولية في العام 2002 في مدينة لاهاي، وهي أول محكمة جنائية دائمة متخصصة بجرائم الحرب، ثمرة لسنين من المفاوضات والمجادلات القانونية. وتجري حاليًا في المحكمة الجنائية الدولية أول محاكمة لقائد ميليشيا من الكونغو يدعى "توماس لوبانغا" متهم بجرائم حرب تتعلق بتجنيد أطفال في النزاع الأهلي في هذا البلد. كذلك، ينتظر "شارلز تايلور"، الرئيس الأسبق لليبيريا، محاكمته التي ستُجري في لاهاي عقب ادعاءات بارتكاب جرائم حرب خلال النزاع في سيراليون الذي انتهى في العام 2002. وفي حين تُجرى المحاكمة في لاهاي، ستديرها المحكمة الخاصة لسيراليون. و"تايلور" هو أول رئيس سابق لدولة أفريقية يحاكم على المستوى الدولي بتهمة ارتكاب جرائم حرب.

إضافة إلى ذلك، وعلى الصعيد الوطني، بدأ المشرّعون والمحاكم أخيرًا بالعمل على تحمل مسؤولياتهم في ضمان اعتراف القوانين الوطنية بالمسؤولية الجنائية لمن ينتهكون القانون الدولي الإنساني، وتنفيذ هذه القوانين بشكل فعلي. فالرسالة واضحة: على مجرمي الحرب أن يعدلوا عن الاعتقاد بأن الإفلات من العقاب أمر مسلم به.

بيد أنه وبالرغم من هذا التقدم الذي لا يقبل الجدل، لا يزال انفاذ القانون على الصعيدين الوطني والدولي قطرة في محيط. وفيما توفر اتفاقيات جنيف والبروتوكولان الإضافيان إطارا قانونيًا واضحًا للقيود الضرورية لتجنب المعاناة الإنسانية خلال النزاعات المسلحة، فإن الإرادة السياسية لتطبيقها بشكل كامل لا تزال غير كافية. ففي الكثير من الحالات، لم تدرك أطراف النزاع بعد أن الحكمة تقضي بتطبيق وتنفيذ القيود القانونية وهذا ما يصب أخيرًا في مصلحتها، إذ إن الإخفاق في منع الانتهاكات ضد الآخرين يسقط في النهاية ضمانة عدم حدوث انتهاكات مماثلة من قبل الطرف الآخر ●

لماذا البروتوكولان الإضافيان؟

● في الثامن من يونيو/ حزيران 1977، تم اعتماد البروتوكول الأول والبروتوكول الثاني، وهما معاهدتان دوليتان إضافيتان، إلى اتفاقيات جنيف لعام 1949. ويعزز البروتوكولان الإضافيان إلى حد كبير الحماية القانونية للمدنيين والجرحى وقد أرسيا، للمرة الأولى، قواعد إنسانية مفصّلة تطبق في الحروب الأهلية.

● وفرت اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949 حماية قانونية أفضل لضحايا النزاعات، إلا أنها كانت تنطبق أساسًا على النزاعات الدولية، أي الحروب بين الدول. ووحدها المادة 3 المشتركة بين الاتفاقيات تشير إلى النزاعات الداخلية؛ وبالرغم من أن اعتمادها نفسه حقق خطوة إلى الأمام، إلا أن القواعد التي تنص عليها المادة تبقى عامة بالدرجة الأولى.

● "ورثت" معظم البلدان التي حققت استقلالها بعد العام 1945 اتفاقيات جنيف من سلطات الاحتلال السابقة – فكان اعتماد البروتوكولين فرصة لها للإسهام في تطوير القانون.

● يطبق البروتوكول الأول على النزاعات المسلحة الدولية، أما البروتوكول الثاني –فيطبق على النزاعات المسلحة غير الدولية، وهو مصطلح يشمل الحروب الأهلية. فقد كان من الضروري التمييز بين الحالتين لأن الدول لم تكن مستعدة لمنح الحماية القانونية نفسها في كلتا الحالتين.

● في العام 2005 تم اعتماد بروتوكول إضافي ثالث ووضعت هذه المعاهدة شارة إضافية هي الكريستالة أو البلورة الحمراء، لتكون متساوية مع شارتي الصليب الأحمر والهلال الأحمر من حيث وضعها القانوني.

● تناولت اتفاقية جنيف الأولى لعام 1864 حصرًا رعاية الجنود الجرحى؛ وتم تعديل القانون لاحقًا ليشمل الحرب البحرية وأسرى الحرب.

● نتج عن مراجعة القانون وتوسيع نطاقه في العام 1949 اتفاقيات جنيف الأربع وتشمل الجنود الجرحى في ميدان المعركة؛ الجرحى والغرقى في البحار؛ أسرى الحرب؛ المدنيين تحت سيطرة العدو.

● حظيت اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949 بقبول عالمي ووصل عدد المنضمين إليها في العام 2006 إلى 194 دولة.

● من الخطوات المتقدمة الرئيسية التي تضمنها البروتوكولان الإضافيان الأول والثاني لعام 1977 والتي شكلت القواعد السبع الأساسية للقانون الدولي الإنساني والبروتوكولين الملحقين:

(1) يحق للأشخاص العاجزين عن القتال أو غير المشاركين مباشرة في الأعمال العدائية أن تحترم أرواحهم وسلامتهم المعنوية والبدنية، وأن يتمتعوا بالحماية والمعاملة الإنسانية دون أي تمييز مجحف.

(2) يحظر قتل أو إصابة أحد أفراد العدو الذي يستسلم أو يكون عاجزًا عن القتال.

(3) يتم جمع الجرحى والمرضى ورعايتهم من قبل طرف النزاع الخاضعين لسلطته. وتشمل الحماية أيضًا الأفراد العاملين في المجال الطبي، والمنشآت، ووسائل النقل والمعدات. وشارة الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر هي علامة هذه الحماية ويجب أن تحترم.

(4) يحق للمقاتلين والمدنيين الواقعين تحت سلطة الطرف الخصم أن تحترم أرواحهم، وكرامتهم وحقوقهم الشخصية ومعتقداتهم، وأن يتمتعوا بالحماية من كافة أعمال العنف والأعمال الانتقامية. ويحق لهم مراسلة عائلاتهم وتلقي الإغاثة.

(5) يحق لكل فرد الاستفادة من الضمانات القضائية الأساسية. ولا يعد مسؤولا عن عمل لم يرتكبه. ولا يكون معرضًا للتعذيب البدني أو النفسي، أو العقاب البدني أو المعاملة الوحشية أو المهينة.

(6) ليس لأطراف النزاع وأفراد قواتها المسلحة خيار غير محدود بالنسبة لوسائل وأساليب الحرب. ومن المحظور استخدام أسلحة أو أساليب الحرب التي تسبب خسائر غير ضرورية أو معاناة مفرطة.

(7) على أطراف النزاع التمييز في كافة الأوقات بين السكان المدنيين والمقاتلين من أجل الحفاظ على حياة السكان المدنيين وصيانة الممتلكات المدنية. ولا يجوز أن يكون السكان المدنيون أو الأشخاص المدنيون عرضة للاعتداء، بل توجه الاعتداءات ضد الأهداف العسكرية فقط ●

الإنساني 40 عددًا على طريق النضوج

تحتفل مجلة "الإنساني" بعددها الأربعين؛ فمنذ ولادتها في أواخر العام 1998 وهي تتطور، تتغير وتنمو، مواكبة الأزمات والعمل الإنساني، حاملة رسالة مفادها أن الإنسان دائما هو أولا.

كانت "الإنساني" حاضرة في العراق أيام الحصار، وفي فلسطين وقت الانتفاضة، وشهدت على التدهور المستمر لحياة الفلسطينيين، كما رصدت التطورات الميدانية في السودان وفي اليمن، وأفردت لهذين البلدين عددين كاملين.

تواجدت في الميدان فسجلت صور الضحايا وطالبت بحمايتهم، تحدثت إلى قانونيين ومسؤولين وعاملين في الحقل الإنساني، كما دعت محللين وكتابًا للمشاركة بآرائهم، علها تستطيع حشد الرأي العام والرأي المثقف وراء حملتها الدائمة من أجل صون كرامة الإنسان.

بدأت المجلة حياتها معتمدة بشكل كبير على نقل صورة واضحة ومفصلة عن عمل "اللجنة الدولية للصليب الأحمر"، وعن تداعيات الحروب والأزمات على الناس. ثم أخذت المجلة طريقًا مختلفًا بعض الشيء، فاختارت أن تدخل إلى التفاصيل الثقافية المجتمعية عند تغطيتها للأحداث. وبذلك استطاعت أن تنقل القارئ إلى مدينة أصفهان الأسطورية في العدد الخاص عن "إيران"، كما أبرزت النسيج السكاني الفسيفسائي في "دارفور" (العدد الخاص عن السودان) وغيرها من المناطق القريبة والبعيدة.

كان الهدف الأساس للإنساني عند نشأتها هو تكوين مساحة لمناقشة الأمور الإنسانية داخل الإعلام والرأي العام العربي طبعا. وما ساعد في ذلك هو تدافع الأزمات على هذه المنطقة وبالتالي زخم المعلومات المتداولة حول الإنسان وحياته اليومية في ظل الصعوبات التي يواجهها.

نحن في مجلة "الإنساني" نتمنى أن نكون قد نجحنا بالفعل في إيجاد هذه المساحة واستدراج عدد من الأقلام المرموقة للإدلاء بآرائهم حول المواضيع الراهنة. ونأمل أن تستمر مسيرتنا هذه حاشدة رأيًا عامًا يؤمن بالقوانين الإنسانية ويدافع عنها.

في مشوارها طوال هذه السنوات رافق "الإنساني" عدد من المدافعين عن الإنسان والمؤمنين بالقوانين والأعراف والأخلاق التي تحظر إيذاءه، نذكر منهم السيد رولان هوجنان، مؤسس المجلة وصاحب الفكرة، الذي جلس ليالي عدة يحضر لمشروعه حتى تحقق. تبعت رولان السيدة ليلى بيرلمون شتيوي فرافقت المجلة في مرحلة صعبة على المنطقة حين انهالت عليها الحرب على العراق وتبعاتها.

ثم استلمت المجلة من ليلى وعشت مع "الإنساني" 15 عددًا حتى الآن، بما فيها عددان خاصان عن السودان وإيران. كم هي رحلة شيقة رحلتنا هذه مع المجلة، وكم من المواضيع والشخصيات قد تم تناولها على مدى الأعوام التسعة الماضية!

لكن الرحلة ما كانت لتتم لولا الأستاذان محيي الدين اللبّاد ومحمد سيف فهما فعليًا والدا المجلة وصانعاها. فبكلماتهما وحسهما الفني استطاعا تجسيد الإنسانية والعمل الخيري والقانون الدولي على صفحات ابتدأت بالأسود والأبيض فأحيتها الألوان والصور.

تفتخر "اللجنة الدولية للصليب الأحمر" بمجلة "الإنساني" وتعتز بالمساهمات القيمة التي تصلها. وإذ تقترب المجلة من سن النضوج مع العدد 40، تشكر اللجنة الدولية الأستاذ محمد سيف على سنوات من الكفاح من أجل رفع صوت الإنسانية فوق صوت السياسة والعنف، وترحب مع هذا العدد بالصحفية زينب غصن التي تنضم إلى فريق المجلة في إدارة تحريرها ●

تمارا الرفاعي

البيئة: عامل إشعال لحروب المستقبل ؟

عند البحث عن الأسباب وراء الحروب البدائية تبرز الحاجة للغذاء والموارد المائية كأحد الأسباب الأساسية والتي أصبح يطلق عليها مع الحروب الحديثة، اسم الأسباب والمصالح الاقتصادية. ومع ذلك فالتغيير في التسميات لا يغير لب الموضوع بل يحاول تجميله في أعين مجتمعات تدعي المدنية والحداثة. لكن تقريرا أصدره برنامج الأمم المتحدة البيئي "يونيب" في يونيو/حزيران الماضي أعاد القضية إلى المربع الأول. وبعد أن كان التركيز منذ بضع سنوات على البحث في تأثيرات النزاعات المسلحة على البيئة في منطقة ما، أو ما يعرف بالتقييم البيئي لما بعد النزاع، جاء التقييم البيئي للسودان ليؤكد أن الأهم من تقييم الوضع بعد انتهاء النزاع، هو في حل المشاكل البيئية الناتجة عن التغيرات المناخية بوصفها سببا أساسيا في إشعاله. وأن أي حل للنزاعات حول العالم لا يأخذ بعين الاعتبار العامل البيئي، غير مرشح للاستمرار طويلا.

زينب غصن

يعتقد البعض أن المشكلات البيئية التي يتناولها الإعلام أو المؤتمرات العالمية ليست سوى زوبعة في فنجان لا تصل تأثيراتها إليه. غير أن الزوبعة التي يطلق عليها اسم الاحتباس الحراري أو ارتفاع حرارة الأرض بدأت تخرج من فنجانها لتتحول إلى أمر واقع يؤثر على حياة كل إنسان على الكرة الأرضية وبأشكال مختلفة لا يمكن دائما التنبؤ بها. فخلال السنوات المائة الماضية ارتفعت حرارة الأرض حوالي 0,74 درجة مئوية منها 0,4 درجة منذ السبعينيات وحتى الآن. وهي تغييرات لا يمكن إعادتها إلى أسباب طبيعية إنما هي ناتجة عن النشاط الإنساني. إذ يشير تقرير "للهيئة الدولية حول التغييرات المناخية" (IPCC) إلى أن تسعين في المائة من أسباب ارتفاع حرارة الأرض تأتي من النشاط الإنساني.

فمع الثورة الصناعية بدأت تتزايد في الجو غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان وثاني أكسيد النتر أو ما يعرف بالغازات الدفيئة لاسيما مع استخدام الوقود والتغييرات التي طرأت على وسائل الزراعة واستخدامات الأراضي. ويتوقع تقرير الهيئة أن يرتفع معدل حرارة الأرض ما بين 1,5 درجة و5,8 درجة خلال هذا القرن. وهو أمر ينذر بكوارث لاسيما إذا ما راقبنا التغييرات التي حصلت حتى الآن نتيجة الارتفاع الطفيف نسبيا في درجة الحرارة.

إذ يمكن اليوم ملاحظة هذا التغيير من خلال حالات الطقس المتطرف الذي بدأت تشهده مناطق عدة حول العالم من جفاف أو فيضانات أو تزايد في أعداد الأعاصير أو العواصف الماطرة. ففي حين كانت بريطانيا تصارع الصيف الماضي موجة أمطار وفيضانات لم تشهدها من قبل، كان جنوب أوروبا يعاني من الحرائق الناتجة عن ارتفاع الحرارة والجفاف حيث وصلت الحرارة في أثينا إلى 46 درجة وهو رقم غير مسبوق، وكذلك الأمر في ايطاليا وقبرص وبلغاريا ورومانيا. كما وصلت الحرارة في برلين وباريس إلى 39 درجة. في المقابل يتحدث المراقبون في منطقة الخليج العربي عن ارتفاع نسبي في كميات الأمطار التي تهطل عليه مما يهدد بإحداث تغيير في البيئة الصحراوية لاسيما في الغطاء النباتي الصحراوي الذي بدأ يشهد ظهور أنواع جديدة من النباتات لم تكن موجودة في السابق.

ويشكل ارتفاع مستوى المحيطات أحد أهم المشاكل المتأتية من الاحتباس الحراري. فمع زيادة حرارة الأرض يذوب الجليد القطبي مما يؤدي إلى أمرين مهمين: ارتفاع في مستوى البحار وتغييرات في حرارة التيارات البحرية وتيارات المحيط. وتعتبر المناطق الساحلية أكثر المناطق المهددة بسبب هذا التغيير في منسوب المياه إذ يخشى أن تغرق الكثير منها في المستقبل ما لم يتوقف ذوبان الثلوج. وتقدر منظمة الصحة العالمية أن يكون 200 مليون إنسان في خطر من الفيضانات والمياه الملوثة بحلول العام 2080.

ويعتبر التغيير في اتجاهات تيارات المحيطات وحرارتها أحد الأسباب المهمة في ظهور الأعاصير العنيفة في مناطق لم تكن تشهد مثلها في الماضي.

الصراع على البقاء: السودان مثالا

كل هذه المعطيات لا تتوقف عند حدود التأثير على البيئة والعوامل الطبيعية فقط إذ يبدو أن ذلك ينعكس على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمناطق الأكثر عرضة للتغيير. وهو انعكاس يظهر بأشكال مختلفة قد يكون الصراع أحدها، سواء أكان صراعا سياسيا أو اقتصاديا أو حتى عسكريا.

وقد شهدنا مؤخرا بداية صراع على الموارد الطبيعية من غاز ونفط في المنطقة القطبية لم يكن من الممكن أن تحصل في السابق لولا ذوبان أجزاء من الجليد وانكشافه عن ثروات هائلة تقدر بثلاثين في المائة من الاحتياطي العالمي للطاقة.

وإذا كانت فكرة الصراع على البقاء وعلى تأمين موارد العيش، كانت دائما السبب الأول للحروب عبر التاريخ إلا أن ذلك لم يعد بالوضوح نفسه مع تحول المجتمعات أكثر فأكثر من مجتمعات زراعية ورعوية بدائية إلى مجتمعات أكثر تنظيما وتعتمد اقتصاديات معقدة تشكل التجارة والصناعة والخدمات عمادا أساسيا فيها. وبالتالي ظهرت مصطلحات جديدة لتوصيف الصراع على الغذاء والموارد المائية ومناطق الرعي والأراضي الخصبة ومصادر الطاقة بالحديث عن المصالح السياسية والاقتصادية والجيوبوليتيكية كعناصر تحرك الصراعات. لكن في الواقع تبقى هذه التسميات الحديثة شكلا مطورا وأكثر تعقيدا للحاجة البدائية إلى تأمين الغذاء. والأمر لا يختلف اليوم وإنما طرأت تغييرات على أساليب الصراع ووسائل القتال المستخدمة.

ويأتي تقرير أصدره مؤخرا برنامج الأمم ●●●

●●● المتحدة البيئي "يونيب" إلى إعادة الاعتبار للعامل البيئي كأحد الأسباب الأساسية لنشوب النزاعات في العالم.

إذ غالبا ما تطلب الدول، التي تشهد نزاعات مسلحة، من "اليونيب" إجراء تقييم للوضع البيئي لما بعد النزاع. وهو ما حصل بالفعل في السودان حيث طلبت السلطات ذلك. غير أن المفاجأة التي أطلقها تقرير "اليونيب" الصادر في يونيو/ حزيران الماضي هو تأكيده "أن الأهم من تقييم الوضع بعد انتهاء النزاع، هو في حل المشاكل البيئية التي تشكل سببا أساسيا في إشعال هذا النزاع." وخلص التقرير إلى أن أي حل للنزاعات لا يأخذ بعين الاعتبار العامل البيئي هو حل غير مرشح للاستمرار طويلا.

ويشير التقرير إلى وجود "**روابط بين النزاع والبيئة في السودان متبادلة التأثير. فمن جهة كان للنزاع الممتد لفترة طويلة في البلد تأثيراته الهامة على بيئته. وكانت أشد العواقب غير المباشرة تتمثل في نزوح السكان، وضعف التنظيم الإداري وأساليب استغلال الموارد السيئة المرتبطة بالنزاع وقصور الاستثمار في التنمية المستدامة. ومن جهة أخرى كانت القضايا البيئية ولا تزال تمثل أسبابا للنزاع. فالتنافس على احتياطات النفط والغاز ومياه النيل والخشب وكذلك قضايا استخدام الأراضي الزراعية عوامل سببية مهمة في إثارة النزاع في السودان وإدامته. فالمواجهات والتنافس على المراعي وأراضي الزراعة المطرية في أجزاء البلد الأكثر جفافا هي مظهر صارخ بوجه خاص للترابط بين شح الموارد الطبيعية والنزاع العنيف. غير أنه، في جميع الأحوال، تتداخل العوامل البيئية مع طائفة من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية**".

ويرى تقرير "يونيب": "**وجود ارتباط قوي بين تدهور الأراضي والتصحر والنزاع في دارفور. ويمكن اعتبار شمال دارفور– حيث أوجد النمو السكاني المتضاعف مع ما يواكبه من ضغط بيئي ظروفا تدفع إلى قيام نزاعات ساعدت على استمرارها اختلافات سياسية أو قبلية أو إثنية – مثالا مأساويا للانهيار الاجتماعي الذي يمكن أن يترتب على التدهور البيئي**". وخلص إلى أنه "**لن يكون بالإمكان قيام سلام دائم في المنطقة ما لم تحل هذه القضايا البيئية والمعيشية الأساسية المترابطة ترابطا وثيقا**".

ويضع التقرير التصحر وتغير المناخ الإقليمي كسببين أساسيين أسهما في الفقر والنزاع. فيقول "**حدث انتقال في اتجاه الجنوب بما يقدر بمسافة 50 إلى 200 كيلومتر للحدود بين المنطقة شبه الصحراوية والصحراوية منذ بدء التسجيل لهطول الأمطار والكساء النباتي في ثلاثينيات القرن الماضي. ويتوقع أن يستمر هذا التحرك في الحدود في اتجاه الجنوب بسبب استمرار تناقص معدلات الهطول. وهناك خطر كبير لحدوث مزيد من التصحر يتهدد بقية المناطق شبه الصحراوية ومناطق "السافانا" الرملية قليلة الأمطار، والتي تمثل 25٪ من أراضي السودان الزراعية. ومن شأن هذه التنبؤات أن تؤدي إلى هبوط حاد (نحو 20٪) في الإنتاج الغذائي. وعلاوة على ذلك، توجد أدلة متزايدة على أن هبوط معدلات سقوط الأمطار بسبب تغير المناخ الإقليمي يمثل عامل ضغط شديد على المجتمعات الرعوية– وبخاصة في دارفور وكردفان– مما أسهم في اندلاع النزاع**".

التغيير المناخي يُشعل الحروب؟

وإذا كانت أهمية التقرير تكمن في أنه يعترف للمرة الأولى بالدور البيئي في تأجيج النزاعات إلا أنه لم يكن الأول في التحدث عن هذا الأمر. ذلك أن هذه القضية بدأت تأخذ اهتمام جهات دولية عدة منذ فترة ليست بالبعيدة.

فبدأت "مجموعة الأزمات الدولية" International Crisis Group تناقش في مايو/ أيار الماضي إمكانية إدخال "التغيير المناخي" كمتغير إضافي يساهم في إشعال الحروب.

والمجموعة هي منظمة غير ربحية مهمتها رصد ومراقبة مناطق الصراعات مقرها بروكسيل. وقد أتى ذلك بعد أن تزايد الاهتمام بهذه القضية. وصدر أيضا تقرير عن مجموعة من الجنرالات الأميركيين المتقاعدين في أبريل/ نيسان الماضي اعتبر أن "الاحتباس الحراري يمكن أن يعمل على مضاعفة التهديدات" من خلال أحداث كالجفاف الذي يمكن أن يطيح بحكومات غير مستقرة أصلا ويطلق النزاعات". وهو ما دفع البعض إلى اعتبار أزمة دارفور "**حرب التغيير المناخي الأولى**".

إذ تشير مجلة "نيو ساينتست" البريطانية المتخصصة إلى دراسة قام بها **مارك ليفي** من جامعة كولومبيا في نيويورك والعامل مع "مجموعة الأزمات الدولية". حيث جمع بيانات حول 70 من مناطق النزاعات الداخلية ومدى توفر المياه في تلك المناطق وربطهما. وأظهرت دراسته أنه عندما تكون كميات الأمطار أقل بكثير من المعدل الطبيعي فإن خطر تحول نزاع بسيط إلى حرب أهلية على نطاق واسع يتضاعف تقريبا في السنوات التالية. ورأى **ليفي** أن "**الجفاف يمكنه أن يؤدي إلى نقص في الغذاء مما يولد غضبا تجاه الحكومات ويدفع البعض لحمل السلاح**".

في المقابل هناك من يشكك بهذه النتائج وبعملية الربط بين المناخ والصراعات ويرى أنها مازالت عرضة للنقاش، وبالتالي قد يكون من المبكر الحديث عن "حروب التغيير المناخي".

نزوح جماعي ولا عودة

يشير مقال كتبه السفير الجزائري **محمد سحنون**، مستشار أمين عام الأمم المتحدة السابق **كوفي أنان** لشؤون منطقة القرن الأفريقي، بعنوان "التدهور البيئي كسبب للنزاعات العنيفة" إلى أن "**التدهور البيئي والجفاف المتكرر والتصحر واختفاء الغطاء النباتي بسبب التغيرات المناخية والكوارث الطبيعية يؤدي إلى نزوح مجموعات كبيرة من منطقة إلى أخرى مما يرفع الضغط على الموارد المتضائلة أصلا ويؤدي إلى ردود أفعال عنيفة من السكان المحليين بسبب شعورهم بعدم الأمان والحرمان من الموارد والخوف من الجوع وهو ما يشعل غالبية النزاعات**". ويرى **سحنون** أن "**الوقاية المبنية على المصالح المشتركة والتعاون طويل الأمد والتنمية المستدامة... وحل أسباب المشاكل الأمنية من جذورها، من خلال تأمين الحق بالحصول على مياه الشرب والهواء النظيف والطعام والأمن والأراضي غير الملوثة والمأوى والصحة العامة الآمنة، هو في النهاية الحل للمآسي التي تحملها النزاعات في أفريقيا**".

وهو أمر ينطبق على أفريقيا، والسودان بشكل خاص، كما أنه مرشح للتكرار في مناطق عدة حول العالم بدأت تشهد تأثيرات ارتفاع حرارة الأرض عليها وعلى مواردها الطبيعية...

يقول مدير برنامج الأمم المتحدة للبيئة **أخيم ستاينر** أن "**من بين المناطق الأكثر عرضة للنزاعات يزيد الاحتمال في منطقتين أساسيتين هما منطقة شرق أفريقية (الساحل) وشرق آسيا. فخلال السنوات الخمس والثلاثين المقبلة سيذوب غالبية الجليد على جبال الهيمالايا مما يعني أننا نتحدث عن 500 مليون إنسان سيتأثرون مباشرة بذلك و250 مليونًا سيتأثرون بشكل غير مباشر**".

ويضيف "**إن ارتفاع مستوى البحار على شواطئ بنغلادش يجعلها منطقة صراع محتمل آخر. وقد بدأت الهند بالفعل ببناء جدار يمنع البنغلادشيين من العبور إليها. ومع ما يتوقع حصوله من ارتفاع في مستوى مياه المحيطات بارتفاع يبلغ نصف متر فإن 34 مليون إنسان لن يكونوا قادرين على البقاء حيث هم الآن**". وتعتبر أفريقيا أكثر المناطق عرضة للتأثر بارتفاع مياه المحيطات. فذلك قد يؤدي إلى تدمير حوالي 30 في المائة من المناطق الساحلية لهذه القارة.

وقد بدأت آثار التغيرات المناخية تظهر في القارة بأشكال مختلفة. ففي غانا مثلا اندلعت نزاعات بين المزارعين والرعاة وأخذت بالتوسع كلما زاد الشح في الموارد الطبيعية.

لكن المشكلة الأهم التي يمكن أن تنشأ عن هذه النزاعات هي عدم قدرة النازحين على العودة إلى مناطقهم الأصلية بسبب من التغيير المناخي كما يقول **ستاينر** ●

النسيج الاجتماعي- الاقتصادي محركًا للصراع في دارفور؟

لا يمكن فصل الصراع في دارفور عن خلفيات اجتماعية واقتصادية حكمت العلاقة بين القبائل المختلفة التي تشكل النسيج الاجتماعي لهذه المنطقة من السودان. غير أنه، وبالرغم من اعتبار الكثيرين أن الأسباب الأساسية لهذا الصراع يمكن إعادتها إلى الجذور القبلية للمجتمع الدارفوري، يبدو أن هذه الجذور نفسها هي التي مازالت تبقي على تماسك اجتماعي يمكنه أن يساعد المنطقة على استعادة توازنها مع انتهاء الصراع.

ICRC

عاد آدم أخيرًا إلى "كبكابية" من معسكرات اللجوء شرق تشاد، وبعد فترة لحقت به أمه بعد أن فقد الأحياء من الأسرة الأمل في عودتهما. وجدا قريتهما "كرنقل" التي بدآ منها رحلة الشقاء والمعاناة عبر الصحراء القاحلة، وجداها قد دمرت تمامًا وأصبح بقية الأسرة والأهل نازحين على تخوم مدينة "كبكابية". كان أمرًا لا يصدق بالنسبة لآدم، الذي انقطع تعليمه الابتدائي في منتصف المرحلة، أن وجد فرصة العودة إلى مدينته الأم وبعض مواطنيه الذين لم يطالهم الموت، ولكنه لم يجد ذاته في المنطقة فواصل ترحاله المرهق إلى أن وصل الخرطوم، العاصمة الاتحادية، حيث استقرت قطاعات اجتماعية واسعة من غرب السودان، وبعض من أفراد أسرته الذين عاشوا مأساة رحيلهم المفاجئ إثر اندلاع النزاع المسلح في إقليم دارفور.

أول ما نصحه به أقاربه كان أن يحصل على فرصة لمواصلة تعليمه وبالفعل وجد تلك الفرصة، فهو اليوم ضمن تلاميذ ولاية الخرطوم. لقد استعاد **آدم** بعضا من ثقته بنفسه وبالناس، وأخذت الحياة تعود إليه رويدا رويدا، وهو اليوم يتحدث إلى الآخرين ويبتسم لهم ولكن قلما يسأله أحد عما حدث له ولأسرته، إذ إن ذلك ليس أولوية في الحياة اليومية المليئة بالواجبات والمسئوليات على الصعيد الشخصي في أطراف الخرطوم. بعد أن اطمأننت على استقراره النفسي الأسري بالتأهيل والمعايشة، سألت **آدم** قبل وقت قصير عما حدث له وللأسرة في منطقة "كرنقل" بالتحديد أثناء النزاع، فهو ابن أختي **فاطمة بخيت**.

كان صعبا عليه أن يقول شيئا ذا بال في البداية، فوالده من قبيلة الدَروك وهي قبيلة ذات جذور عربية انتمت إلى منطقة "كرنقل" التي يعيش فيها التنجر من أهل أمه. وبالتدريج اختلطت الأنساب بالمصاهرة والإنتاج الزراعي بشقيه النباتي والحيواني ولم يعد الناس يعودون إلى أعراقهم في الظروف اليومية، فهم جميعا ينتمون إلى المنطقة أو إلى الفكي **بخيت خاطر** الذي توفي حسرة على المفقودين من أسرته بعد وقت قصير من اجتياح قريتهم. كان يحفظ القرآن ويعلمه لأبنائه وأصهاره، وكنت أتردد عليهم من "كبكابية" عندما تحين إجازات المدارس، أو الجامعة فيما بعد، أو في المناسبات الأسرية الكبيرة التي تحدث بالأفراح والأتراح. تجاوزت هذه المنطقة الانتساب إلى القبيلة كشأن معظم المناطق في دارفور ولكنها منطقة إنتاج واسعة تلتقي عليها أعراق التنجر والفور والقمر والحواطية والدروك والبني حسين والرزيقات والزغاوة والتاما والهوارة وغيرهم. وتم ذلك عبر عقود طويلة من التعايش والتكافل الاجتماعي واكتساب وسائل معيشية مشتركة، وتعزز ذلك الروابط بالتعليم والتجارة والهجرات المتبادلة، لذا

كان صعبًا على **آدم** أن يصنف نفسه قبليًا على النحو الذي روج له أطراف النزاع في بعض مراحل الصراع.

قال لي **آدم**: "**قاتل الله العرب**"، وهو يعني بذلك المليشيات المسلحة التي تمثل أحد أطراف الصراع في المنطقة مع الحركات المسلحة الأخرى. قلت "**ولكن آدم أنت من العرب**"، بيد أنه لم يزد على أن قال: "**حتى لو كنت منهم**"..

فالإطار الشامل لهذا الصراع يمكن رؤيته بوضوح أكثر من خلال الصراعات المماثلة له فى المنطقة من حيث الأبعاد السياسية والاقتصادية. ومن خلال مثل هذه الصراعات تنفذ سياسات تعمل على تطبيق مخططات لتقوية أطراف وإضعاف أخرى، من أجل تأمين توازن لقوى وإضعاف لأخرى حيث تتمثّل الحسابات القبلية والمحلية كما في حالة الزغاوة والتنجر والمساليت والفور، هي ومن تقود النزاع ضدها. وبعد ذلك فتح المجال واسعًا أمام المغامرين من الأقليات التي لا تملك أراضي أو ما يعرف في دارفور "بالحواكير". مثل هذا الوضع شجع آخرين من معظم القبائل للانخراط في العمليات القتالية لسبب أو لآخر مخلفين وراءهم الخراب والدمار.

وفق الروايات المتواترة ومن بينها رواية **آدم**، فإن منطقة "كرنقل" في الأمان الذي تعيشه، تعرضت في خريف العام 2003 لواقع مختلف وعصيب. لقد عرض على أهل القرية والقرى المجاورة أن يقفوا إلى جانب أحد الأطراف لمقاومة الآخر، وكانت الإجابة على الفور بأن المتمردين لم يتعرضوا لنا ولسنا معنيين بمقاومتهم. وهي إجابة ظلت تتردد في أحيان كثيرة في دارفور بما في ذلك أكثر المناطق العربية كثافة سكانية مثل دار الرزيقات. الوقوف في هذه المنطقة الرمادية جعل السكان عرضة للانتقاد وللعمليات الانتقامية، وفي هذا السياق تم تدمير الكثير من القرى وقتل مئات الأشخاص فيها. أما الأحياء فتفرقت بهم السبل حيث اتجه بعضهم جنوبا إلى "كبكابية" في معسكرات النزوح والبعض الآخر غادر على عجل شمالًا عبر منطقة "كرنوي" إلى معسكرات اللجوء في تشاد.

كان **آدم** وأمه **فاطمة** من ضمن مئات الآلاف من أبطال رحلات الإرهاق والمعاناة. وتلاقت كل قوات المراقبة على وصف ما حدث بدارفور بأنه المأساة الإنسانية الأكثر كارثية في العالم مع مطلع الألفية الثالثة.

احرقت عشرات الآلاف من القرى في الريف وفقد الآلاف من السودانيين في دارفور أرواحهم في العمليات العسكرية واجتياح القرى من قبل الفصائل المسلحة في الإقليم، أو في خلال جولات الاقتتال بين المجموعات المحلية القبلية نتيجة الفوضى الضاربة أطنابها في الإقليم المضطرب. إلى ذلك فإن أكثر من مليوني مواطن أصبحوا

عبد الله آدم خاطر*

لاجئين في الدول المجاورة وحول المدن الكبرى في دارفور. وهم يعيشون في معسكرات غاية في البؤس. ولولا الحيوية التقليدية في مجتمعات دارفور وتمسك مواطنيها بالحياة، لانهارت جملة مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في دارفور وتحول الإقليم بالكامل إلى واقع ديمغرافي جديد خاصة بعد هجرة مجموعات أخرى غير مستوطنة إليه تريد أن تخلق لنفسها موضع قدم في المنطقة.

بالرغم من الشدائد التي تعرض لها إقليم دارفور، والعنف الواسع الذي تعرض له أهله، إلا أنه لم يفقد ملامحه التاريخية والثقافية. ومع التعاطف الإنساني العريض الذي وجده الإقليم إعلاميًا فإنه قادر على استعادة حيويته الاجتماعية والاقتصادية في اتجاهات جديدة من أجل التنمية والتعاون بين شعوب الإقليم والعالم، بالرغم من الاختلاف العميق في النظرة إلى الأزمة ما بين مواطنيه وحكومتهم الاتحادية في الخرطوم.

ينظر الدارفوريون إلى أنفسهم كشركاء في تاريخ السودان وفي الإقليم الواسع الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي، وفى الأمن والاستقرار الاقتصادي. بيد أن النموذج الإستعمارى في الإدارة والاقتصاد حرمهم من أي مزايا مستحقة لهم. منذ الاستقلال الذي شاركوا فيه بالنضال السياسي والجماهيري على قاعدة بناء وطن يشارك فى بنائه كل السودانيين، إلا أنهم لم يحصلوا على حقوقهم، فأخذوا في التعبير السياسي عن قضاياهم بمختلف الوسائل بما في ذلك الانتماء للأحزاب السياسية، وتكوين تنظيمات إقليمية تتحالف مع غيرها في إطار البناء السوداني، والمشاركة في الانقلابات العسكرية والثورات المحلية، كما حدث في السنوات القليلة الماضية حتى بلغت حد النزاع الداخلي المسلح.

دائما ما تنظر الحكومات المركزية للحركات المتمردة على أنها مجموعات منفلتة وخارجة على القانون ينبغي ردعها لكي تعاد للدولة هيبتها من خلال سياسات أمنية وإدارية. فى مثل هذه الصراعات دائما ما تدخل الحكومات المركزية في مفاوضات الحل السلمي وتحت الضغوط الدولية والإقليمية. وفى فترة ما بعد الحرب الباردة تحديدا تبدلت الاجندة الدولية وتراجعت مفاهيم كسيادة الدولة وهيبتها لدرجة أصبحت بها الحدود الإقليمية للدولة هامشًا على الحدود الجغرافية، هذا الوضع سمح للمجتمع الدولي بالتدخل لصياغة اتفاقية سلام في دارفور عندما لم ينجح في إيقاف نزيف الدم والنزاع وذلك في اجتماع القمة بين الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي في السادس والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني الماضي بأديس أبابا (إثيوبيا). إذ جاءت خلاصات الاجتماع على نحو معضد لتيار الحل الذي طالما ظل الجميع يتطلعون إليه كعهد جديد ومختلف في دارفور.

اجتمعت الإرادة الدولية والإقليمية مجددا على فتح ملف التفاوض بين أطراف النزاع والعمل بكل جدية لحماية المدنيين من خلال قوات دولية تمنح صلاحيات حفظ السلام المتوقع الوصول إليه بوساطة الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي. وتم توفير المناخ الإنساني للحوار بين الدارفوريين بعد تسوية الأزمة في السلطة المركزية لتجاوز الاحترابات والنزاعات المحلية وتكوين رؤية مشتركة لتأهيل العلاقات المتردية بين المجموعات القبلية. هكذا اتجهت النوايا والجهود إلى النظر فى إمكانية حل شامل يتم التراضي عليه يعضد وحدة السودان من خلال الدستور الانتقالي.

إذا ما تم الاتفاق مجددا بين أطراف النزاع، وهو ما بات أمرا متوقعا، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: كيف تستطيع دارفور أن تقتلع ذاتها من قاعدة التخلف الاجتماعي الاقتصادي وتعمل لتصبح نموذجا للأقاليم السودانية الأخرى؟ لم يفقد النزاع المدمر في دارفور العالم بصره ويبعده عن التحديق في الفرص الواسعة أمام دارفور لتصبح إقليما أول في السودان. لقد تأكد أن المياه الجوفية متوفرة بكميات وفيرة كما أوردت التقارير الدولية هذا فضلا عن المعادن الأخرى مثل النحاس، واليورانيوم والبترول، فيما تعرف دارفور تقليديا أنها من أبرز الأقاليم التي توفر منتجات الصادر في السودان مثل الماشية والصمغ والكركديه والسمسم... إلخ. على صعيد التجارة الإقليمية فإن حدود السودان الغربية في دارفور تسمح بتجارة الحدود على نطاق واسع، حيث تصل الصناعات السودانية إلى العمق الغربي للقارة الأفريقية. وهى في الوقت نفسه معبر للبضائع من غرب أفريقيا وشمالها إلى داخل السودان. من ناحيتها تتمتع دارفور بالصناعات الشعبية النابعة من ثقافة الإقليم مثل الأطباق والأحذية والصناعات الجلدية والسعفية والخشبية. وهى برغم عدم رعايتها من قبل الدولة فإنها تشق طريقها إلى مختلف أنحاء السودان.

إن مستقبل دارفور المعاصر قد يبنى على قاعدة العدالة الانتقالية بمحكماتها وتصالحاتها، وقاعدة التنمية من الواقع الثقافي في بوصلاتها القومية والدولية في سياق الشراكة من أجل التنمية لأفريقيا ●

(*) كاتب وصحفي سوداني

الصورة والتأسيس لميثولوجيا جديدة للموت

الهادي خليل*

المروحيات تنقل الفتيات الراقصات إلى تجمهر الجنود المحاربين [لقطة من فيلم «نهاية العالم الآن»]

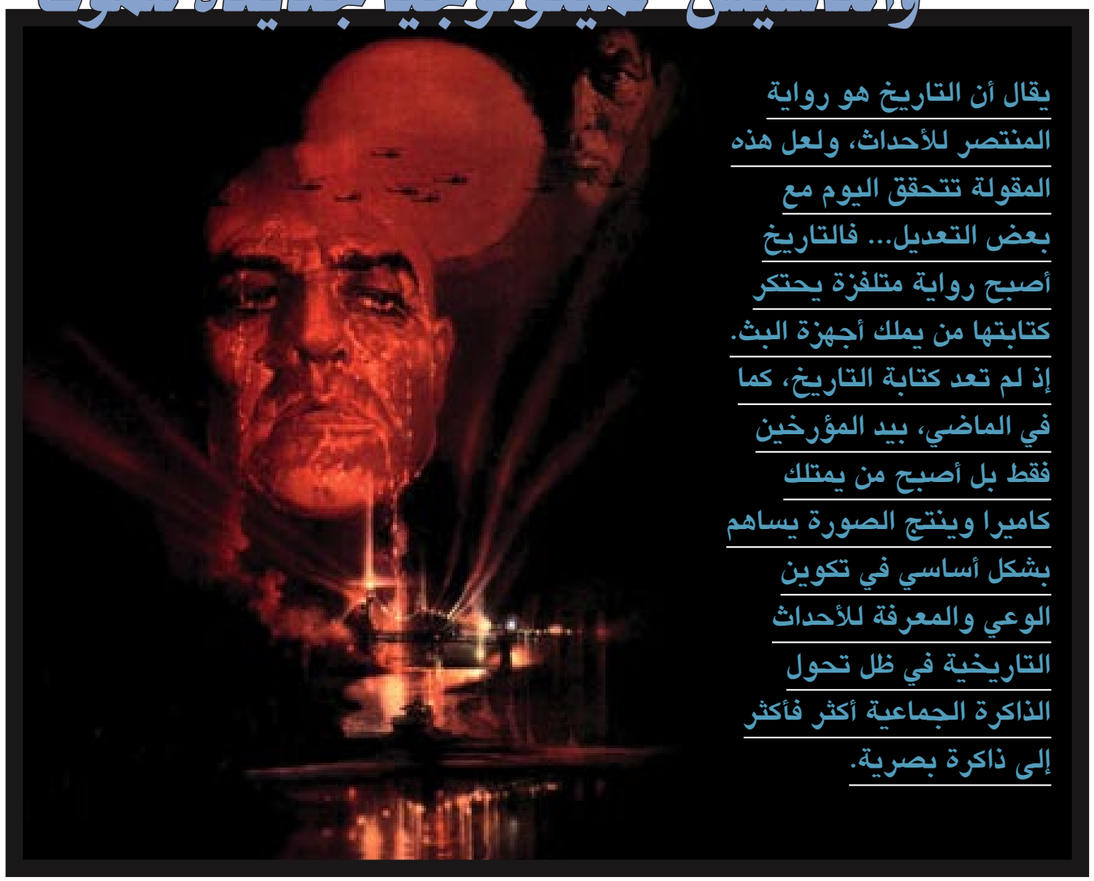

أرّخ فيلم «نهاية العالم الآن» لحرب فيتنام بصور العنف والإجرام

يقال أن التاريخ هو رواية المنتصر للأحداث، ولعل هذه المقولة تتحقق اليوم مع بعض التعديل... فالتاريخ أصبح رواية متلفزة يحتكر كتابتها من يملك أجهزة البث. إذ لم تعد كتابة التاريخ، كما في الماضي، بيد المؤرخين فقط بل أصبح من يمتلك كاميرا وينتج الصورة يساهم بشكل أساسي في تكوين الوعي والمعرفة للأحداث التاريخية في ظل تحول الذاكرة الجماعية أكثر فأكثر إلى ذاكرة بصرية.

(*) أستاذ الأدب والسينما بجامعة تونس

للصورة علاقة وطيدة بالإباحية وبالعقيدة، فهي مدارة على التقاطع الحيوي بين العنف والمقدس. الإباحية المقصودة هنا ليست تلك المتعلقة بالعلاقة الجنسية وتجلياتها بل بالجثث البشرية وعلاماتها. يعرض الأموات على الشاشة الصغيرة كما تعرض السلع في السوق البلدي. ولا غرابة أن نرى في يوم من الأيام ومضة إعلانية تتخلل مشاهد مجزرة ما. كذلك من الطبيعي جدا أن تطل علينا الفنانة المصرية **نجاة الصغيرة** تغني لنا "ارجع إليَّ" بعد بضع دقائق من بث مشاهد عن مذبحة صبرا وشاتيلا.

لا مجال في التلفزة للتباكي والحداد. ولا يغرنّا صوت مذيعة عربية تنبهنا من هول الصور التي ستعرض على أعيننا لأن وظيفة هذا التنبيه هي أساسا مضاعفة الرغبة في المشاهدة. كما أنه يجوز أن نتفاعل مع صحفي خليجي يجهش بالبكاء عند إعلانه عن بدء قصف العراق من قبل الأميركيين والبريطانيين قبيل ساعات من حلول شهر رمضان لسنة 1998. لكن بقطع النظر عن صدق أحاسيس هذا الوسيط الإخباري أو عدم صدقها، فما هدف رد الفعل الحاد هذا إلا مسرحة الخبر وأنسنة المؤسسة الإعلامية بتسريحها، ولو لبعض ثوان، من قانون الموضوعية والبرودة العقلانية الذي يسوس منطقها.

تتبارى جل المحطات الفضائية في العالم قصد الظفر بالسبق في بث مشاهد الرعب والدمار. وتحاك خيوط للمزاد العلني الحقيقي حاليا في أوساط الإعلام، وليس في أشهر المحلات اللندنية أو الأميركية، حيث تقام مباريات بين أثرياء هذا العالم من أجل الفوز بلوحة الرسام الهولندي **رامبرانت** أو بقميص حريري للأميرة **ديانا**. موائد العين الإعلامية مفتوحة للعموم ولا تتضمن مبدئيا أي تمييز طبقي. تتطلب هذه السوق حضور البديهية الفطري وتعتمد اللهث المسعور وراء جاذبية التصوير المباشر والتقاط الحدث في ماديته الخام في حين أن عروض الموضة والجواهر التي تنظم بصفة موسمية تراهن على قدم القطع المقدمة للبيع، أو على نجومية مالكيها، وتخضع لدواليب تنظيمية محكمة ومألوفة. ليس هناك نجومية في الموت ولن يكون مجديا، في طابور أموات الأمس بدير ياسين، وصبرا وشاتيلا وتل الزعتر أو في طابور أموات اليوم في العراق والسودان والكونغو الديمقراطية، التكلم عن أبطال أو عن شهداء معينين.

يؤسس في التلفزة لميثولوجيا جديدة للأموات لكن دون الاكتراث هذه المرة بطقوس الإغريق وببراعات الفراعنة في إجلال موتاهم وتخليد ذكراهم، سواء بواسطة أقنعة خزفية تتحدى الفناء أو بواسطة أقنعة ذهبية تؤمن البريق الأزلي لأجسام محنطة ومعطرة. لم يعد لاحتفالية الموت أي معنى والإنسانية سائرة حاليا نحو إزالة الأضرحة والاستغناء عن النصب التذكارية وشواهد القبور.

هذه الميثولوجيا الجديدة للموت مقترنة جوهريا بميثولوجيا أخرى تسعى التلفزة جاهدة إلى اقتفاء مظاهرها واستحضار مراسمها وهي صورة البطل الجماعي أو الفردي الذي يتمرد ضد النظام العام ويخاطر بحياته في مواجهته العابثة لأجهزة القمع البوليسية والعسكرية. مآثر البطل وتحدياته المبهرة، رأيناها حارة بصفة جلية خلال موكب جنازة **الإمام الخميني** بإيران أو أثناء الأحداث الدامية التي حصلت في ساحة "تيان ان مان" بالعاصمة الصينية بيكين في ربيع العام 1989.

كان تفجير خيال أساطير الأموات والآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال موكولا إلى فن عريق هو المسرح. وها إن التلفزة، بعد السينما، تعيد حاليا تركيب هذه الميثولوجيا بحسب آليات وتقنيات وتصورات على علاقة بطبيعتها الإعلامية التواصلية.

الأبطال والأموات

جعلت التلفزة الحروب فرجة ونقلت لنا صور قطعان الأموات بحسب منطق الافتراسية الولائمية. هنالك شريط سينمائي، يبدع، بحسب اعتقادي، في عكس نهم عالم الصور الاحتفالي بالفواجع البشرية وهو "**نهاية العالم الآن**" Apocalypse Now للسينمائي الأميركي **فرانسيس فورد كوبولا** والذي أنجزه في العام 1979.

في رائعة **كوبولا**، نرى تجمهرا غفيرا من الجنود الأميركيين ينتظرون قدوم حسناوات جميلات سيمتعنهم بلوحات راقصة. تأتي الفتيات على متن طائرات مروحية ويقع إنزالهن على حلبة المرقص الواحدة تلو الأخرى. يبدأ الحفل في جو هستيري أشعلته إغراءات الراقصات العابثات. تعم الفوضى ويهجم بعض الجنود على الفتيات اللواتي يسارعن بالفرار. كان هذا الهيجان مرتقبا ومنتظرا من قبل القيادة العسكرية وكأنه تكريس لطلب أساسي في الحروب، وهو أن الغريزة القتالية لا تشحن إلا بواسطة الإثارة الجنسية.

في مشهد محوري آخر، نشاهد كيف أن ضابطا أميركيا يأمر جنوده بإسقاط أطنان من القنابل على القرى الفيتنامية الشمالية وهو ينتشي بسماع سمفونية من سمفونيات **فاغنار** الشهيرة. تتم عملية التدمير على إيقاع قطعة موسيقية عالمية إلى حد أنه يخيل إليك أن فصائل الطيارين الذين يقومون بالهجوم هم أفراد أوركسترا متناغمة وماهرة .وفي مشهد ثان، نرى الضابط نفسه يستنشق رائحة قنابل "النابلم" مستغربا امتعاض جنوده منها.

أدان كثير من المثقفين والكتاب الغربيين ومن بينهم الروائية الفرنسية **فرنسواز ساغان** فيلم "نهاية العالم الآن" لأنهم اعتبروه عملا يمجد الحرب ويتفاخر بالدمار الذي تخلفه. هذا الرأي مهما كانت مشروعيته، ينطلق، برأيي، من قراءة خاطئة لمفهوم الفيلم. ما قصده المخرج الأميركي من خلال المشاهد المذكورة آنفا، ليس التشجيع على الحرب أو التشريع لها وإنما رصد المتغيرات الأساسية في العقلية التي ينجز بها الغرب غزواته العسكرية، فالحروب بالنسبة له أصبحت مثل اللعبة التي تطبق من قبل شباب يمزحون وضباط مازالوا يعيشون على ذكرى أمجاد رعاة البقر وملاحم كتائب الخيالة. كما أن **كوبولا** صور لنا منفذي الحروب بمثابة العابثين الاستعراضيين الذين أدركوا أن درب القتال على علاقة وثيقة بفنون الاحتفال والفرجة. العقيد «كرتز» الذي تمرد على القيادة العسكرية الأميركية واحتشد في قرية فيتنامية نائية جاعلا منها معبده الخاص، رفض أن يكون مجرد بيدق في أيادي مصممي الحروب ومخرجيها. ألّه نفسه فازدادت أعداد مريديه وأتباعه. جعل من قلعة العزلة التي يعيش فيها حصنا يستحيل اقتحامه. لذا بات أمرا ملحا قتل هذا المارد الذي خلق عالما وثنيا وأسطوريا مبهم الدلالات وصعب الاختراق.

في إحدى الصور العديدة التي التقطتها له أجهزة المخابرات الأميركية بقصد رصد تحركاته السريعة والمباغتة في الأدغال الفيتنامية، نرى شبح رجل يتأهب للانفلات من رقابة أعرافه ومطاردتهم له بغية الالتحاق نهائيا بمعبد الأموات. انطلقت حتمية القضاء على "كرتز" من هذه الوثيقة الطيفية التي رافقت رحلة العسكري الأميركي الطويلة المكلف بتنفيذ عملية القتل. لا تحب أميركا الخيالات وربما هزمت في فيتنام لأنها وجدت أمامها بشرا يجيدون حروب الأشباح.

من فجاجة الواقعية إلى وهج الميثولوجيا

تفطنت السينما منذ زمان إلى انجذاب الإعلام الفوتوغرافي والتلفزيوني إلى مشاهد القتل والتشنيع. والأمر المحير حاليا هو أننا أصبحنا نتابع مثل هذه الحالات بنوع من اللامبالاة غير الإرادية وكأنها لم تعد تهمنا إطلاقا. ولا أظن أن هذا الإحساس الغريب ناتج عن كوننا ألفنا الرعب والكوارث التي أشبعتنا بها خدع السينما الهوليوودية. الشعور بالبرودة التي تنتابنا متأتٍّ من البث المعاد والمتكرر الذي تخضع له هذه المشاهد في النشرات الاخبارية أساسا وفي الملفات السياسية بدرجة أقل إذ يقع إعادة بثها بالأسلوب وبالتعليقات نفسها وبالاعتماد على نفس الشهادات. تتغير وجوه الوسطاء الإعلاميين وتتداول على بث الخبر عديد من الأصوات، صباحا وظهرا ومساء أو في ختام السهرة، لكن المشهد نتلقاه في قالب إعلامي موحّد تتناقله كل المحطات الفضائية العالمية، تارة بالتشذيب وطورا آخر بالتمطيط، تبعا للميول والمصالح.

ألا يعني الحياد الذي ينشده الصحافيون في تغطية الحروب والمجازر، أو الحرفية المهنية التي يتسترون بها، أننا تناسينا إنسانيتنا وأصبحنا كلنا متلصصين؟ في حديثهم عن حرب الخليج رأينا بعض المصورين الغربيين يدلون بشهادات مفادها أن هذه الحرب لم تشف غليلهم بما أنها كانت خالية من المفاجآت ومن الأحداث المباغتة والمثيرة. ورأينا فوتوغرافيا فرنسيا يعلق على صورة جندي عراقي تشكل في كيس من الفحم خلال انسحاب القوات العراقية من الكويت انسحابا فوضويا مأسويا، بأنها "الصورة الجيدة الوحيدة" التي غنمها. وها إن ●●●

●●● اللعبة الاستعراضية استهوتهم إلى درجة أننا أصبحنا نسمعهم يرددون ويكتبون أن هذه الحرب لم تقع إطلاقا وأن حقيقتها هي حقيقة إعلامية أساسا. الفيلسوف السيميائي الفرنسي **جان بودريار** محلل جيد وفذ في تناوله ظاهرة الموت والغواية، أو دلالات الحياة اليومية المتشعبة في المجتمعات الغربية. لكن الأمور اختلطت عليه كليا في مقال عنوانه "حرب الخليج لم تقع" (نشر في صحيفة ليبيراسيون الفرنسية في 29/3/ 1991) حين صرح وأكد أن حرب الخليج وهمية وأنها مجرد منوّعة إعلامية لا جديد فيها من بدايتها إلى نهايتها. لو أيدنا رأي **بودريار** لأصبحت كل الدمارات التي سببتها هذه الحرب أوهاما خالصة.. تدمير ملجأ العامرية بالعاصمة بغداد بدعة اختلقها العراقيون بقصد كسب عطف الرأي العام العالمي.. محاصرة شعب بأكمله وتجويعه وإهانته هو بالتأكيد ادعاء يحتاج إلى أدلة ثابتة.. معركة الخفجي في الأراضي السعودية معركة خيالية بما أننا لم نرها... الحرب الأهلية الضارية التي نشبت في شمال العراق وجنوبه تحت لهيب الآبار البترولية الكويتية وغيومها هي كذبة كبرى.. أعمال التدمير والسطو التي استهدفت بها المتاحف العراقية لا أساس لها من الصحة. هل كان الغرب يحتاج حقا إلى حجج دامغة لكي يتأكد أن الحرب تمت فعلا أم أن الفرجة المقدمة كانت دون مستوى الآمال المرتقبة؟

لا الغربيون أشرار ولا العرب ملائكة، لكن ما دام هؤلاء يقتاتون من الصور التي ينتجها أولئك عنهم وعن قضاياهم المصيرية، فإن كل التهويمات الإعلامية وكل التعليقات الفكرية تبقى واردة. ومادام العرب لم يبادروا بإنشاء بدائل إعلامية يكون بمقدورها الحد ربما من احتكار الغرب شبكات الإعلام في العالم، فالاقتراب من الحقيقة الموضوعية يبقى أمرا صعبا. وهذه الروح التي نحن العرب في أمس الحاجة إليها ليست متعلقة بإمكانيات مادية وكفاءات تقنية ومهنية بقدر ما هي مرتبطة بتربة ديمقراطية وسياسية صلبة وملائمة وبحد أدنى من الوفاق والتكتل العربيين. وسواء اتفق الإعلاميون الغربيون على هزال مشاهد حرب الخليج أو ترجينا قيام إعلام تلفزيوني عربي يكون في حجم تطلعات العرب وآمالهم رغم الانكسارات والخيبات، فهذا كله لن يغير كثيرا في أمر هام وهو أن الوسطاء الإعلاميين الحقيقيين إبان حرب الخليج ليسوا المصورين

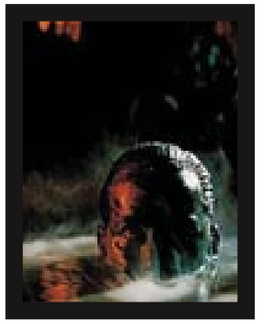

لقطة من فيلم «نهاية العالم الآن»

AFP

التقطت عدسة المصور لحظة ألم كبرى لأم فقدت أبناءها في عمل إرهابي في الجزائر في العام 1998 لتذكّر بآلام «العذراء مريم» على ابنها كما رسمها ميكال أنجلو.

ولا الصحفيين بل القادة العسكريون. هؤلاء، من أميركيين وعراقيين، هم الذين ضربوا رقابة مشددة على تحركات المصورين وهم الذين حجزوا العديد من النسخ السلبية لأشرطة صورت خلسة. في دول عدة في المنطقة، تبرمج السلطات زيارات ميدانية لوفود الصحافة العربية والغربية وبالتالي تحدد وتنتقي مشاهد الدعاية الخارجية المخصصة إليها. والأمر اللافت للانتباه أن الصحافيين، في مثل هذه البعثات، يبدون نوعا من الطيبة والانضباط الكليين وكأن كرم الضيافة قد أفحمهم وأغناهم عن كل تحفظ أو انتقاد؟ هل يتصرفون كذلك لأنهم يعرفون أن إقامتهم ستطول في ذلك البلد العامر بالأحداث وأنه يتوجب عليهم تجنب المشاكل مع أي كان؟

هنا وهناك لم ير المشاهدون من مثقفين أو سياسيين أو من عامة الشعب، إلا صورا موجهة من قبل الخبراء العسكريين. لا يجوز إذن أن يغيب عن أذهاننا، عندما نتكلم عن رتابة الصور المبثوثة وتشابهها، أن الرقابة والمصادرة قد لعبتا دورا لا يستهان به في مثل هذه الحالات. ورأينا بصفة واضحة ومعلنة أن هذا الدور النشيط للرقابة قد سلط أيضا على الصورة خلال الحرب التي شنها الحلف الأطلسي على يوغوسلافيا في الأسبوع الأخير من شهر مارس/آذار 1999. فمنذ الساعات الأولى من الهجوم الجوي المكثف على قواعدها العسكرية ومنشآتها الاقتصادية، قطعت بلغراد كل علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا. في هذه الظروف المشحونة بغضب اليوغوسلافيين ضد الغرب وسخطهم عليه، شلت حركة الصحافيين الأجانب ومنعوا من القيام بدورهم الإعلامي. اقتصر دورهم فقط على نقل الأخبار بواسطة الهاتف. الصور التي كنا نشاهدها إذن في القنوات التلفزيونية الفرنسية عن حرب البلقان مريبة ومثيرة للكثير من التساؤلات عن مدى مصداقيتها وموضوعيتها بما أنها كانت تبث من قبل التلفزة اليوغوسلافية الحكومية. وفي الوقت الذي كنا نرى فيه تلك المشاهد الباهتة والمكررة والمتشابهة عن مخلفات القصف، كانت تدور في التعتيم والخفاء التامين، عمليات التصفية الانتقامية من قبل الصرب ضد المدنيين الألبان بمقاطعة كوسوفو.

الصورة كوثيقة إدانة

تربك الصور السلطات بشتى أنواعها وتخيفها. حتى أصبح "حراس" بعض القادة

يسارعون إلى حجب عين الكاميرا ويأمرون المصورين بالانصراف لمنعهم من تسجيل وقائع القمع. وخلال سنوات "الانتفاضة" في الأراضي الفلسطينية المحتلة مثلا، أصبح مشهد صد المصورين من قبل الجنود الإسرائيليين وتعنيفهم أمرا عاديا ومألوفا.

عندما يعم جو من التعتيم الإعلامي وتختلط الآراء والمواقف والوقائع حول حادثة ما، تصبح الصورة – هذا طبعا إن وجدت – الوثيقة الوحيدة التي يمكن اعتمادها لإدانة المذنب ومحاكمته. ولهذا الغرض لا يهم أن تكون قد التقطت من قبل محترفين أو هواة وأن تكون نوعية التأطير والصوت والإضاءة ضعيفة أو رديئة. المهم هو أن تتباهى التلفزة بلعب دور الشاهد الدامغ وتبرهن للعيان أن الوسيط الإعلامي هو الشريك الحيوي للعدالة. منذ سنوات خلت شاهدنا حادثة انقضاض رجال الأمن الأميركيين، خلال دورية عادية، على شاب أسود وانهالوا عليه ضربا وركلا حتى أفقدوه وعيه. شاهدنا ذلك بفضل كاميرا فيديو لمواطن أميركي كان على بعد أمتار من الحادثة. وصلتنا مشاهد عدة أخرى مذهلة ومرعبة تجسد في كل من رواندا والكونغو الديمقراطية، شناعة التصفيات الجسدية وعمليات تقطيع لحم البشر مثلما يقطع لحم الحطب من خلال عين مصور هاو. مثل رجال الشرطة البيض الثلاثة أمام العدالة الأميركية في محاكمة صاخبة. أما الآخرون، فذابوا في فوضى الهاربين وازدحامهم وابتلعتهم دوامة المجازر.

نحو سلوكيات التلصص

أصبحت الوثيقة المرئية المثيرة والطريفة عملة مغرية تتنافس على الظفر بها التلفزيونات والمجلات ووكالات الأنباء في العالم. في فترة نعيش فيها الانتشار الجنوني لألعاب القمار والرهانات والمسابقات بمختلف أشكالها، تحولت الصور إلى تجارة مربحة. هنالك صور درت على أصحاب الحظ الذين التقطوها صدفة، آلاف وربما ملايين الدولارات. أما الذين لم يبتسم لهم البخت في الرهان الرياضي أو في سباق الخيول فربما يحلمون باقتناص "صورة العمر". فحمى الثراء السريع تنمي سلوكيات الجاسوسية والتلصص. هل سنصبح كلنا مخبرين؟ هل سيتمنى غدا كل واحد منا أن تكون لديه كاميرا خفية يفرض بواسطتها تفوقه على الآخرين؟

لم تغب الأهمية البالغة لصفقات الصور هذه عن عين الرقيب الأمني إذ اختصت أجهزة البوليس الأميركي منذ مدة في إنجاز أفلام عن مغامرات مفتشيها وبطولاتهم أثناء ملاحقتهم الأشرار والمجرمين. والغرض البديهي من سلسلة معنونة "مطاردات" بثت من قبل القنوات التلفزيونية الأوروبية والخليجية هو تعويدنا على الاستئناس بالأمن والاطمئنان إلى هؤلاء الرجال الشجعان الذين هم دوما بالمرصاد لكل طارئ يفسد النظام العام. لكن غرضها الأساسي والحيوي هو إقامة البرهان على أن الأمن ممول رئيسي لصور الإثارة والتشويق وأنه طرف ضروري في مضمار سوق كاسات الفيديو والبرامج التلفزيونية التي تروج مثل هذه المشاهد.

تلبي صور الحروب والمجازر أو صور المطاردات البوليسية ولقطات العنف والهلع التي تتخللها رغبة العين في التلصص والانفلات من رتابة الحياة اليومية. لكن هذه المشاهد متشابهة ومعادة ووقتية التأثير وتنتهي بك إلى الإحساس بنوع من الضجر التلقائي. ينتج الغرب هذه الصور بغزارة ويعرف أنها سهلة المنال ومن تحصيل الحاصل، بما أن الرعب أصبح السمة البارزة والثابتة لهذا العصر. لكنه يدرك أيضا أن المشاهد التي بإمكانها إذكاء خيال المتفرجين الدفين وبصم ذاكرتهم، هي تلك التي تشتمل على إرث حضاري أو ثقافي أو ديني مشترك ليس متوفرا في تلك الصور المتناسخة والمدرجة في نظام دوريات الأخبار الكونية. الصورة التي تبقى هي التي لا تتكرر والتي تبدو كأنها غير خاضعة لأي سياق تاريخي أو وساطة إعلامية. هذه الصورة يكتب لها المجد بدون سابق إضمار لمجرد أنها أذكت الذاكرة الجريحة لإنسانية تحن إلى ميثولوجيا عقائدية ملهمة ومؤثرة تستعيد بواسطتها قدرتها على البكاء والشفقة، أو تذكّي احتياجها الحيوي إلى أبطال فرديين أو جماعيين بمقدورهم زعزعة أسس النظام العام والتصدي إلى مظالم هذا العصر.

والصورة التي لفتت انتباه الغربيين إلى مآسي الشعب الجزائري وأثارت قريحتهم ودفعت بوسائل إعلامهم إلى القيام بحملة تندد بهول المجازر وبشاعتها هي صورة فوتوغرافية لامرأة جزائرية مستندة إلى حائط المستشفى وهي تبكي أولادها الثمانية الذين قتلهم المسلحون في بلدة بنطلحة الواقعة في الضواحي الجنوبية للجزائر العاصمة. أما المرأة التي نراها تواسي الأم فقد نجت هي أيضا بأعجوبة من الهلاك بعدما أبيد كل أفراد عائلتها في تلك المذبحة الجماعية التي ذهب ضحيتها ما يفوق المائة شخص (وقعت هذه المذبحة في سبتمبر/ أيلول 1997).

والصحافي الذي التقط الصورة يدعى **حسين زعرور** وهو جزائري الأصل ويعمل في وكالة الأنباء الفرنسية. تبوأت هذه الوثيقة أعمدة أغلب المجلات والصحف الفرنسية مثل "لوموند" و"ليبيراسيون" و"الإكسبراس" وأثارت تعليقات عدة تصب كلها في انطباع واحد وهو أن هذه اللقطة تحيلنا إلى صورة السيدة العذراء La Madone وهي تنتحب على جثمان المسيح. وقد شاعت هذه الصورة المرسومة أو المنقوشة على الخشب والتي تحيي ذكرى الأمومة المعذبة La Pietà. Mater Dolorosa لاسيما خلال القرون الوسطى وعصر النهضة الأوروبية. الصورة حبلى بالأحاسيس والعواطف التي تنشط طاقاتنا الانفعالية وهي ليست الصورة الموغلة في واقعية المذابح بل تلك التي تصلنا عن طريق وساطة فنية قديمة.

أدرك أغلب الفنانين الكبار النفوذ المطلق والسحري الذي تفرضه الطقوس والصور والتماثيل العقائدية والدينية على البشر. وهو الجانب الذي يغرينا في الإبداعات السينمائية لكل من الإيطالي **بيار باولو بزوليني** Pier-Paolo Pasolini أو الإسباني **لوي بونويل** Luis Bunuel. لا أدري هل كان المصور الجزائري **حسين** ملحدا أو مؤمنا لكن كان بإمكانه أن يقول: "**إنني أصبحت مشهورا بفضل السيدة العذراء**".

كانت كل تلفزيونات العالم تتمنى الظفر بصورة تحظى بالرواج والشهرة نفسها الذي حظيت به الصورة التي التقطها الصحافي الجزائري. لكن لو كانت هذه الصورة صنيعة الإخراج التلفزيوني، هل كان سيكتب لها الخلود؟ لا يعرف التصوير التلفزيوني التأني والصبر وانتظار الفرصة السانحة. هو يحتكم إلى دوران الصور الكوني وإلى معايير السرعة في تقديم المعلومة الإخبارية. التقط حسين آلاف الصور قبل ان تثار كل تلك الضجة الإعلامية الغربية حول ما أصبح يسمى "بلقيته المرئية" trouvaille. عندما دفعت السلطات الأم الجزائرية إلى رفع دعوى ضده ووكلوا لها محاميا للدفاع عن "حقوقها" اكتفى بالقول: "**إنني قمت بعملي مثل سائر الأيام ولا أفهم لماذا يريدونني أن أمثل أمام العدالة**". "الذنب" الوحيد الذي اقترفه **حسين** في انتظار رقباء الصورة في الجزائر، هو أنه أجاد عكس تلك الشحوبة واللوعة اللتين طبعتا وجه القديسة الجزائرية وكأننا أمام رسم أو نحت لفنان النهضة الإيطالية، **ميكال أنجلو**.

الصورة التي توقظ الأوجاع وتبقى في الذاكرة هي التي تتشابك فيها الفرجة بإرث عقائدي وميثولوجي صميم. لبلوغ هذا الهدف، لا شيء يضاهي بذار حبات الصور الفوتوغرافية ذات الغشاء الرقيق ولا شيء يستبد بمخيلة البشر أفضل من الرسوم التي تسترقها من خفقان ملاحم الاحداث اليومية وخوارقها ●

ICRC

نصير شمّة يروي

أحزان العراق بالموسيقى

حاورته: **زينب غصن**

منذ العام 1993 وأنت بعيد عن العراق، وخلال كل هذه السنوات مر عليه حصار واحتلال وحروب فكيف ترى من "بيت العود العربي"، من القاهرة، عراق اليوم؟

اختياري لهذا البيت، "بيت العود"، له علاقة بالعراق. فهذا البيت لا يختلف كثيرا عن البيت الذي ولدت فيه إلا في بعض الفروق في التفاصيل بين العمارة العباسية والعمارة الفاطمية. لكن الخشب والحجر نفسه. فبعد سنوات من العمل في الأوبرا اخترت هذا المكان وطلبته من وزير الثقافة المصري من أجل تخصيصه كبيت للعود لإحساسي أنني في منطقتي.. في بغداد القديمة. وهو اختيار يرتبط أيضا بإحساسي الدائم ببيئتي وثقافتي وانتمائي ومحل ولادتي. أما ما يحصل في العراق اليوم فأنا أتابعه يوميا. ففي كل شبر من بغداد لدي أصدقاء أو أهل.

متى كانت آخر مرة زرت فيها وطنك؟

أنا غادرت العراق في العام 1993 وعدت إليه مرة مع وفد من الأطباء المصريين لنكسر الحصار المفروض عليه. وكان الوفد يضم حوالي 40 طبيبا جراحا وأعضاء في مجلس الشعب وفنانين. حينها كانت المرة الأولى التي تمر قافلة إلى العراق عن طريق سوريا.

ألم تحاول الدخول ثانية؟

كلا. أنا كنت ضد كل أشكال الديكتاتورية وعندي موقف معلن وهو ما كان يشكل خطورة على حياتي. واليوم لدي موقف معلن من الأميركيين ومن يتعاونون معهم. وبالتالي لم يكن من الممكن أن أذهب في ذلك الزمن ولا في هذا الزمن.

هل هذا يعني أن شيئا لم يتغير بالنسبة إليك؟

تغير وإنما نحو الأسوأ. في الماضي كان هناك دولة وشعب ومرتبات وحياة. الآن أصبح هناك ألف ديكتاتور واحتلال وعملاء وجواسيس لكل الدول وعدم أمان وقتل جماعي وتشريد ونازحون ومعوقون بالملايين.

لكن يبدو أن بعدك لم يمنعك من العمل من أجل دعم المدنيين العراقيين ولاسيما الأطفال فما قصة مشروع "مجلس ثقافة ورعاية أطفال العراق"؟

عملت كثيرا على أن يكون لي مكانة أخدم من خلالها الإنسان في كل مكان، وليس فقط الإنسان العراقي. فكلما كان هناك حاجة لوجودي أكون موجودا. ولعل بناء اسم في العالم يجعلك تجد آذانا مصغية عندما تريد أن تقوم بعمل إنساني. وأنا حاولت أن أبني سمعة طيبة من خلال عملي الموسيقي والإنساني وأثمرت هذه الجهود تجاوبا من أي شخص أطلب منه علاجا لأطفال عراقيين من خلال مشروع "مجلس ثقافة ورعاية أطفال العراق" الذي يعنى بتبني ملفات طبية لأطفال العراق.

وهذا المشروع تمكن حتى الآن من علاج 55 طفلا على حساب ملك البحرين. والآن وصلنا إلى 150 طفلا في الإمارات يعالجون على حساب رئيس الدولة. ومازال العمل مستمرا فخلال الأشهر المقبلة يتوقع أن تتبنى قطر 200 طفل عراقي ملفاتهم معي وهم بحاجة إلى عمليات جراحية سريعة. كذلك هناك اتصالات مع السعودية.

تبدو المسافة الجغرافية بين القاهرة وبغداد كبيرة جدا غير أن الجغرافيا والحرب الدائرة في العراق، وإن أبعدتا الفنان العراقي نصير شمة عن وطنه إلا أنها لم تستطع أن تباعد روحه عن أهله وذكرياته وماضيه. وهو اليوم، من قلب القاهرة القديمة وفي بيت يزيد عمره عن الثلاثمائة عام أصبح اسمه اليوم "بيت العود"، يروي "للإنساني" قصته مع الحرب والعلاقة التي تربط موسيقاه معها ومع ضحاياها.

كيف تستطيع متابعة هذا الموضوع مع كل المشاغل الأخرى؟

لا أخفيك أنني قصرت كثيرا في الأشهر الأخيرة تجاه حفلاتي وظهوري الإعلامي واليوم كثفتها كي يكون هناك وقت أكثر للعمل في المشروع. وأكثر ما يؤثر فيَّ هو رد فعل الأطفال وعائلاتهم ودعوات آبائهم وأمهاتهم وهم يرون أطفالهم يعودون إليهم وهم يضحكون ويتكلمون ويمشون وينبضون.

لا شك أن عدد الأطفال الذين هم بحاجة لهذا النوع من المساعدة كبير جدا نظرا للوضع الأمني والسياسي السيئ في العراق فكيف يتم اختيار الأطفال الذين هم بحاجة إلى المساعدة؟ وإلى أي مدى تستطيع أن تتابع هذه الحالات؟

هناك لجنة طبية في بغداد هي التي تتولى الملفات وتثبت الحالات التي ينبغي أن تعالج خارج العراق وترسل ملفاتها إليَّ بالبريد السريع حيث أقوم بعرضها على الجهات الراغبة بالمساعدة.

وبالطبع أتابع كل حالة وأعرف كل الحالات بأسمائها وأزورها في كل بلد للاطمئنان على كل حالة. لكن المشكلة تكمن في تأخر حصول بعض الحالات على العلاج. فهناك مثلا حالة واجهتنا حيث وصلت إلى البحرين ولم يكن لها علاج. كما أن هناك حالات كلما تأخرت أصبح علاجها أصعب.

●●●

ما الذي جعلك تفكر بهذا المشروع؟ ولماذا الأطفال بالتحديد؟

لأنهم المستقبل. فالبالغون يجدون دائما من يساعدهم. وهم قادرون على الذهاب إلى المؤسسات الإنسانية وطلب المساعدة ولكن الطفل لا حول له. وتركيز المشروع هو على الأطفال والعائلات المهمشة خارج المدن.

هل ترى علاقة ما بين الموسيقى والأطفال؟

التلقائية التي تخرج من الموسيقي وتسمى موسيقى وإبداعًا يشبه اللحظة الطاهرة والنقية مع طفل. فالذي يشعر بقيمة الموسيقى لابد أن يكون قريبا من الأطفال.

من مكانك البعيد هنا في القاهرة هل يمكن للموسيقى، لموسيقاك، أن تعبر عن العراق وعن أحاسيسك تجاه ما يحصل فيه؟

لا شيء، ولا مخلوق، قادر على أن يعبر عن أي من الجرائم التي تحصل في العراق. وأنا عندما أكتب عملا عن بغداد لا أقصد به بغداد مباشرة بل أقصد أن أنفس عن الانفجار الذي في داخلي وهو إنقاذ لنفسي أكثر منه تعبيرًا عن شيء ما.

إذًا أنت تنطلق من ذاتيتك لتعبر عما يحصل وليس العكس؟

ليست الذاتية. أنا لولا الموسيقى لكنت مت من زمان... لكان دماغي انفجر من هول ما يحصل. هي ليست ذاتية بل حاجة. وحاجتي أن أعبر عن الغضب في داخلي تتحول عبر الموسيقى. ثم تصل إلى الناس وتجد تأثيرها لديهم لأنها صادقة وتلقائية.

يبدو من خلال موسيقاك والحزن والشجن الكامن في الكثير من القطع التي ألفتها وكأن لك علاقة قديمة مع الحرب ..

أنا عشت حروبا عدة منها الحرب مع إيران ثماني سنوات، ثم حرب الخليج الثانية في العام 1991. وكنت جنديا في خدمة العلم فرأيت كل أنواع الحرب والقتل والإعاقة التي أصابت الإنسان من حولي. لذلك كانت أعمالي مرتبطة بالبيئة والأحداث المحيطة بي. وكانت حاجة لي أن أؤلف عملًا يعبر عن الحرب والسلام وهي حاجة ظهرت في عدد كبير من أعمالي لأن محيطي كان كله حربًا وقنابل ومعوقين وشهداء وقتلى وأسرى وأرامل وثكلى وبالتالي كان لا بد من عمل موسيقي يحاكي هذه الأحداث ومستوى الألم.

الحرب تترك في الروح ندوبًا لا تزول. فالحرب تأخذ ذكرياتك وأحبابك وتغطي شعبًا كاملاً بالسواد

عندما يصل عدد المرات التي أعزف فيها مقطوعة «ملجأ العامرية» إلى 840 مرة، سأتوقف عن عزفها. فهذا الرقم يمثل عدد ضحايا تلك الغارة من الأطفال

لا شيء، ولا مخلوق قادر على التعبير عن الجرائم التي تحدث في العراق الآن

REUTERS

امرأة عراقية تشعل شموعًا في ذكرى مجزرة ملجأ العامرية التي حدثت في العام 1991

ليست العلاقة على ما يبدو في التأليف فقط بل أيضا في طريقة العزف على العود. فأنت طورت مؤلفات وتقنية تمكن العازف من العزف بيد واحدة فقط على العود. ما الذي جعلك تفكر بتقنية كهذه وتهديها للمعوقين ممن فقدوا يدا؟

كان لي صديق يحب عزف العود ويريدني أن أعلمه فاتفقنا على أن أقوم بذلك لكن أتت الحرب وذهب كل الشباب للقتال وأنا وصديقي كنا طلبة فأخذنا أيضا. وبعد أربعة أو خمسة أشهر عاد إليّ بيد واحدة بعد أن فقد يده اليمنى. وجاءني في نهاية إحدى الحفلات ليقول لي أن الحرب صادرت حلمه فشددت على يده اليسرى ووعدته أن هذه اليد ستعزف في الحفلة المقبلة. وهكذا كان.

هل استطعت أن تخرج من تجربة الحرب سليما؟

كلا. الحرب تترك ندوبا في الروح لا يمكن أن تزول. فقط ندوب الجسد يمكنها أن تذوب لكن ندوب الروح لا تزول... فالحرب توجع في الصميم وتأخذ ذكرياتك وأحبابك وتغطي شعبا كاملا بالسواد. وترسم الندوب التي تتركها معالم الحرب في العيون وتحت العيون والروح ونبرة الصوت، وكل الانفعالات الإنسانية فيما بعد تتأثر بالظروف السيئة التي عشناها في الحروب.

لكن يقال إن الإنسان يعالج نفسه بالتعبير فالكاتب يعالج نفسه بالكتابة، هل أنت كموسيقي تعالج نفسك إذًا بالتأليف؟

الكتابة والموسيقى وسيلتان للتعبير عن لحظة الألم لكنها ليست لحظة علاج. أنا حتى اليوم لا أستطيع أن أنسى أصوات الصواريخ التي كانت تنزل على الناس وهول صوت القنابل التي تطلع من البحر. واليوم كلما أرى طفلا عراقيا مشوها نتيجة يورانيوم أو قنبلة عنقودية أو كيميائية محرمة ألعن الحرب صباحا ومساء.

مع ذلك يبدو وكأنك تجلد ذاتك أحيانا عندما تؤلف الموسيقى. فعندما كتبت موسيقى "العامرية" المستوحاة من مجزرة ملجأ العامرية الذي قصفه الأميركيون وذهب ضحيته أطفال أبرياء جلست في الملجأ الذي قصف لماذا؟ ألم يكن من الممكن أن تشعر بما حصل من أي مكان آخر دون الحاجة إلى الجلوس في الملجأ؟

كلا أنا أردت أن اشعر بوجعهم. بعد خمسة أيام من الجلوس في الملجأ بدأت أسمع أصوات الناس والأطفال لحظة الضرب وأرى حتى وجوههم كالملائكة تتطاير وسط الملجأ... وكنت في حالة عجيبة. هناك 6 أو 7 أشخاص خرجوا أحياء مع جروح أو حروق من الملجأ عندما قابلتهم حاولت أن أعرف منهم مدى هول الذي حصل لكن الوصف الذي وصفوه لي كان أقل بكثير من لحظة الاحتراق الذاتي التي كنت أعيشها وأنا في الملجأ. وفي المرة الأولى التي عزفت فيها هذه القطعة، في الذكرى الأولى، كان ذلك في الملجأ نفسه. لذلك أثر هذا العمل في وجدان الناس وأفضل الأعمال برأيي هي التي تكتب في محيطها الأصلي. اليوم إذا أردت أن أكتب عملا عن العامرية أكتب عملا آخر لكن الجو المحيط في تلك اللحظة ورائحة الأطفال وقطعًا من ملابسهم وقطعًا من كتبهم كلها كانت مفردات القطعة الموسيقية. وفي كل مرة أعزف "العامرية" أعزفها من وجهة نظر أحد الأطفال لذلك أنا قررت أنه عندما يصل عدد المرات التي أعزفها فيها إلى 840 مرة بعدد الأطفال الذين ماتوا في ذلك الملجأ سأتوقف عن عزفها.

عندما عشت لحظة العامرية تقول أنك رأيت الأطفال.. نحن اليوم في زمن الصورة، وهي المسيطرة على الناس. إلى أي مدى مازال للموسيقى مكان في عصرنا هذا؟

الصورة قد تعطي شكلا واحدا وبعدا واحدا وعلى أبعد تقدير هي ثلاثية الأبعاد ولكن الموسيقى تعطي لكل إنسان صورة خاصة ولكل إنسان بعدًا خاصًا يختلف بمدى تذوقه وثقافته، ولكل منها جماليات مختلفة وبالتالي هناك الكثير من الصور التي تنتج عن الموسيقى. لذلك عندما اقترح علي العشرات من المخرجين أن نعرض ورائي، خلال عزف العامرية، صورا فرفضت لأن ذلك يشوه القطعة. فعندما نضع صورة واضحة المعالم بينما الحالة فيها كم من الصور والمشاعر الكثيرة فإن ذلك يحدها ويضعها في إطار ضيق. ومع ذلك تحولت هذه القطعة إلى أكثر من 40 عملا وثائقيا ومسرحيا وتناولتها معارض لرسامين عراقيين وعرب واوروبيين وكتب ما بين 30 إلى 35 عملا حولها لأن ما يميزها أنها أرشفت لجريمة كبيرة.

عندما تحاول الكتابة عن قضايا فرحة لا علاقة لها بالحرب.. من أين تستوحيها؟

أستوحيها من الشعر والحب وطفل.. من ابنتي ليل .. من أي إشراقة في الحياة أحاول أن أستعيرها وأبحث عما هو مفقود في شخصيتي وأحتاجه. فأنا أذهب للفرح لأنني أحتاجه وليس لأنه موجود في داخلي ●

كتاب لتخفيف مآسيها

أطلقت في يوليو/تموز الماضي الطبعة العربية الثانية من مشروع كتاب "جرائم الحرب: ماذا ينبغي على الجمهور معرفته" بدعم من "اللجنة الدولية للصليب الأحمر". ويتضمن الكتاب سلسلة من المقالات حول أصناف جرائم الحرب المرتكبة حول العالم معتمدة على شهادات صحافيين عملوا في مناطق النزاع في العراق وفلسطين ولبنان وروسيا. ويعرّف الكتاب الصحافيين بشكل خاص على هذه الجرائم والقوانين الدولية التي تحكمها لما للصحافي من دور كبير في كشفها أمام الرأي العام.

كيم غوردن – بايتس*

كانت الحرب العالمية الثانية، التي وقعت بين العامين 1939 و1945، من أكثر الصراعات دموية على الإطلاق في تاريخ البشرية. لكن من بإمكانه أن يحدد الصراع الذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث أعداد الضحايا وحجم المعاناة الإنسانية؟ إن الجواب ليس سهلًا كما قد يبدو...

هي حرب كان سببها حلمًا حلمه أحد الأشخاص الراسبين في امتحان الخدمة الاجتماعية... حلم بأنه الأخ الأصغر للسيد المسيح.

تلك كانت ثورة "تايبينغ"، وترجمتها الحرفية "ثورة مملكة السماء والسلام"، التي استمرت من العام 1851 وحتى العام 1864. كان ذلك صراعًا استثنائيًا هز سلالة "كينغ" الحاكمة في ذلك الحين في جنوب الصين ووسطها، وهي سلالة ضعيفة أصلًا. كل ذلك بسبب حلم موظف فاشل، اسمه هونغ زيكان، وضع تصورًا دينيًا لحل مشاكل الصين، بعد أن راودته بالفعل رؤيا أخبره فيها السيد المسيح بأنهما "أقرباء". والتقصي عن معلومات حول تلك الأحداث غير العادية يبين أنها آذت الصين وسببت الكثير من الآلام لشعبها، وأدت إلى مقتل ما بين 20 إلى 30 مليون إنسان.

النقطة الأساسية هنا هي أن القليل من الناس سمعوا بهذا الحدث مع أنه شكل كارثة إنسانية. فبينما كانت الجيوش الأوروبية والأميركية منشغلة باستكشاف العالم، والصحافة تتابع الأحداث العسكرية وتنتقدها في مختلف بقاع العالم، مثل القرم، والمكسيك، والولايات المتحدة الأميركية، وإيطاليا (تذكروا معركة سولفرينو)، ونيجيريا، والهند، وكوستاريكا، والأرجنتين، وبلاد فارس...وهي بعض الأمثلة على الأماكن التي حدثت فيها صراعات بين العامين المذكورين، لم يكن هناك وقت، ولا رغبة، ولا اهتمام بإعلام القراء الأوروبيين عن أحداث تقع على هامش حروب الأفيون. وحتى يومنا هذا، ربما لا يعلم بالأحداث المدمرة لثورة تايبينغ سوى الشعب الصيني نفسه.

فبالرغم من ظاهر الأمور، عالمنا اليوم ليس بأسوأ مما كان عليه قبل مائة وخمسين عامًا. ولا أعتقد بأن حروب اليوم أسوأ من سابقاتها، ولا أن المدنيين مستهدفون اليوم أكثر من السابق. إن الفارق الكبير بين الماضي والحاضر هو أننا اليوم مُطّلعين أكثر على الأحداث، ولا نتابعها فقط من خلال وسائل الإعلام، بل نهتم ونتأثر بها أيضًا. صحيح أنه في السابق وُجد ما يُسمى بالرأي العام، حيث أصبح الرأي العام الحقيقي في القرن التاسع عشر شكلًا من أشكال السلطة الشعبية في أوروبا وأمريكا الشمالية، وهو الذي أنهى العبودية، وطالب بالإصلاح، وبإعطاء تبريرات منطقية لاستخدام القوات المُسلحة. وهو الذي قضى على قضية ليوبولد المروعة في الكونغو.... وقبل حوالي المائة عام تقريبًا برزت المُثل الإنسانية العليا، وشكلت، مجتمعة مع المعرفة، قوة لا يُستهان بها.

لقد تطور الحال بشكل كبير منذ ذلك الحين. فعلى سبيل المثال، ومع أن التعامل مع المحامين لا يُعتبر تجربة جيدة، إلا أنه أصبح لدى كل جيش من جيوش العالم الحديثة هيئة من المحامين، لا لإرسالهم إلى الحرب – فهذا بالطبع يتنافى مع معاهدات جنيف ويفرض معاناة على الناس هم بغنى عنها – إنما تكمن مهمة تلك الهيئة القانونية في تقييم الأهداف العسكرية من حيث قانونية ضربها. وقد نختلف هنا حول قانونية ضرب أنواع معينة من الأهداف، لكن النقطة الأساسية هي أن المجتمعات الحديثة وضعت ولأول مرة قيودًا على استخدام القوة وموجباتها لم تكن موجودة في السابق. فأصبحت الجيوش، والسياسيون الذين يُسيرونها، مسؤولين أمام شعوبهم عن طريقة شن الحرب، وهذه هي ثمرة القوة التي تنتج عند دمج المعرفة مع التضامن.

لا بد أن جرائم الحرب وبشاعتها والفظاعات التي تُرتكب خلال الصراعات قد وُجدت منذ قديم الزمان، وقد تقبلها الناس كويلات طبيعية للحرب. كما أنه، وبغض النظر عن معاناتهم، عزى الناس هذه الفظاعات إلى القضاء والقدر. ولكن قبل أكثر من قرن بقليل، تمكنّا من تجاوز فكرة أن الحرب مسألة قضاء وقدر، فنحن نعلم الآن أنه بإمكاننا إحداث التغيير. فإن لم يكن هناك بدٌّ من الحرب، فعلى الأقل سنتمكن نحن أعضاء المجتمع المدني، من ترويض الحرب. وما الطبعة الثانية من كتاب "جرائم الحرب" إلا خطوة نحو ذلك التغيير، نحو التقاء المعرفة مع الضمير الإنساني، وهو أداة أخرى من أدوات انتصار الإنسانية ●

(*) نائب رئيس بعثة اللجنة الدولية في الأردن

ماذا ينبغي على الجمهور معرفته

لعدة عقود، دمرت الحرب الشرق الأوسط، وخاصة منه بلدانًا مثل العراق ولبنان وفلسطين. ومن المألوف أن تسمع مواطني هذه البلدان يجادلون بأنهم لم يتمتعوا أبدا بأية حماية توفرها القوانين ولا الاتفاقيات الخاصة بحقوق الإنسان والقوانين الإنسانية الدولية. وتدعم حكومات البلدان المجاورة لبلدان هؤلاء المواطنين رفضهم احترام المعايير القانونية حين تشير إلى المعايير المزدوجة التي تتبعها البلدان الغربية وإلى محاولاتها فرض هذه المعايير على بلدانهم في حين تترك إسرائيل منيعة على أي نقد مشابه. رغم ذلك فإن هذا الفرض الانتقائي، الذي تقوم به دول العالم القوية، ويؤدي إلى سخرية مفهومة تشيع في صفوف جمهور هذه البلدان، يجب ألا يقلص هذا التزام الجمهور بالمبادئ التي حماها القانون الإنساني الدولي أو يلغي اهتمامه بالفوائد التي تعد بها شعوب المنطقة جميعًا. قد يكون من المفيد أيضًا التذكير بأن قوام هذه القانون لا يملك حلا سحريا للقضاء على انتشار الفظاعات ولتحقيق العدالة للضحايا. فهذا القانون قائم على قبول الطبيعة البشرية بكل أبعادها المظلمة وعلى حتمية الحرب، ويزود الأطراف المتحاربة بالمعايير التي عليهم الالتزام بها، وبأنواع الأسلحة المسموح لهم استعمالها، وبالطرق التي عليهم اتباعها في معاملة المدنيين وأسرى الحرب والجرحى. ولذا، فإنه لا يميز بين القوى والضعيف، وتتمثل مساهمته الأكثر أهمية في أنه لا يعتبر الحرب حالا عصية على الفهم البشري، وأن بالإمكان تقييدها.

تصبح أوقات الحرب لحظات مظلمة في التاريخ البشري حين تتحطم المعايير الإنسانية وحين تصبح الحضارة والسلوك الحضاري مهددين بإمكانية الفناء. قد يعتقد بعض الناس بأن أي شيء يمكن أن يحدث أثناء الحرب، وأن بإمكانهم ارتكاب جرائم بغيضة ويظلون محصنين. وهذا الاعتقاد أبعد ما يكون عن الصحة. فقواعد القانون يجب أن تراعى حتى في حالة الفوضى التي تصاحب الحروب. وإذا انتهكت هذه القواعد فمن المستطاع مطاردة منتهكيها وتقديمهم للعدالة. ومن دون شك، تعتبر جرائم الحرب من بين أكثر الجرائم خطرا.

وفي الحقيقة، فإن محاولة تقييد الحروب، وتقرير ما يُعتبر سلوكًا جُرميًا، وإقامة محاكم تحاكم المتهمين بجرائم الحرب، لم يبدأ فقط في القرن التاسع عشر. فمثل هذا الموقف يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، حين وضع المحارب الصيني "تسو" أول القيود على مجرى النزاع المسلح. وكان الإغريق القدماء من أوائل من اعتبر هذه المحرمات قوانين. وظهرت فكرة جرائم الحرب، بشكل أعم، في "قانون مانو" الهندي (الذي وضعه الإنسان الأول الأسطوري ومانح القوانين، "مانو"، في نحو العام 200 قبل الميلاد). وعقدت أول محاكمة على جرائم الحرب في سنة 1474 في النمسا. وهكذا، يكون تاريخ محاولة الجنس البشري توسيع أثر القانون المحضر ليطبق في أكثر الدول فوضى، تاريخا طويلا. ورغم ذلك، يجب أن لا يتوقع المرء أن تضع هذه التطورات المهمة حدًا نهائيا للحرب أو لجرائم الحرب. وفي الحقيقة، فإن الفترة التي شهدت تقدم القانون الدولي بخطوات مهمة، شهدت أيضا، وفي أكثر من أية فترة سابقة في التاريخ البشري، مقتل المزيد من المدنيين في الحروب.

سابقًا، كانت الجيوش المحترفة تخوض الحروب على أرض معارك بعيدة عن المدنيين. تغير هذا الأمر في القرن التاسع عشر. وحدث أيضا تطور هائل في أسلحة الدمار الشامل، نتيجة لذلك، ازداد عدد المدنيين الذين يقتلون في الحروب ازديادا حادا، ومما بكر تطوير القانون الدولي في الأزمنة الحديثة هو محاولة توسيع حماية المدنيين أثناء النزاع العسكري. ورغم ذلك، لا يكون لتطوير المعايير ووضع القوانين، بحد ذاتها، نتائج إلا إذا كان الناس المعنيون بها، واعين بالمعايير والقواعد والمحرمات، وإلا إذا كانوا واعين بما هو مقبول أو ممنوع في أوقات الحرب. ويهدف هذا الكتاب إلى تزويد غير الخبير بهذه المعرفة. ولذا، فهو مساهمة مهمة في الاتجاه المحضر الذي نحاول جميعنا تشجيعه ونعمل على تحقيقه. ويأتي الكتاب في زمن استيقظ فيه الجمهور العربي على قوته وقدرته على التأثير في مجرى السياسة والأحداث التي تدور من حوله. لذا، ستكون نتيجته أقوى. ويتناول هذا الكتاب مواضيع معقدة جدا ويقدمها بأسلوب ولغة يمكن أن يفهمها غير الخبراء. ومواضيعه مقسمة إقليميا ودوليا فيسهل الرجوع إليها. والعناوين التي يغطيها كثيرة، كتبها كتاب موثوق بهم يسهل فهمها.

وكما سيكتشف القارئ من قراءة هذا الكتاب، تنطبق عديد المعايير على الكائنات البشرية جميعها دون تمييز بينها على أساس اللون أو الجنس أو الدين.

فرغم العداوة والقسوة والتدمير الذي يستطيع البشر إيقاعه على بشر آخرين، وبلدان على بلدان أخرى، لا يزال هؤلاء البشر يملكون حسا إنسانيا عاما مشتركا يوحدهم جميعا. فالمبدأ الذي يقول "إن جميع الكائنات البشرية ولدت حرة ومتساوية في الكرامة والحقوق" والمبدأ القائل إن هذه الكائنات "منحت العقل والضمير، وإن بعضها يجب أن يعامل بعضها الآخر بروح الأخوة" ، قد كرسهما "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الصادر سنة 1984. ومع التطورات الأخيرة في الأسلحة الأكثر تدميرا من تلك التي كانت متوفرة في أي عصر آخر من عصور التاريخ، يصبح بقاء الجنس البشري وبقاء الكوكب الذي نعيش عليه مهددين بشكل خطير. لذا، فإننا بفرض تلك القوانين الهادفة إلى منع جرائم الحرب، نساهم بحماية مجتمعاتنا من ذاك الرعب الموروث في داخل كل واحد منا؛ ذاك الرعب الذي إن أطلق زمامه يمكن أن يسبب تلك الفوضى ويحط ليس من إنسانية الضحية فقط بل ومن إنسانية مرتكب الجريمة أيضًا ●

رجا شحادة*

(*) محام فلسطيني

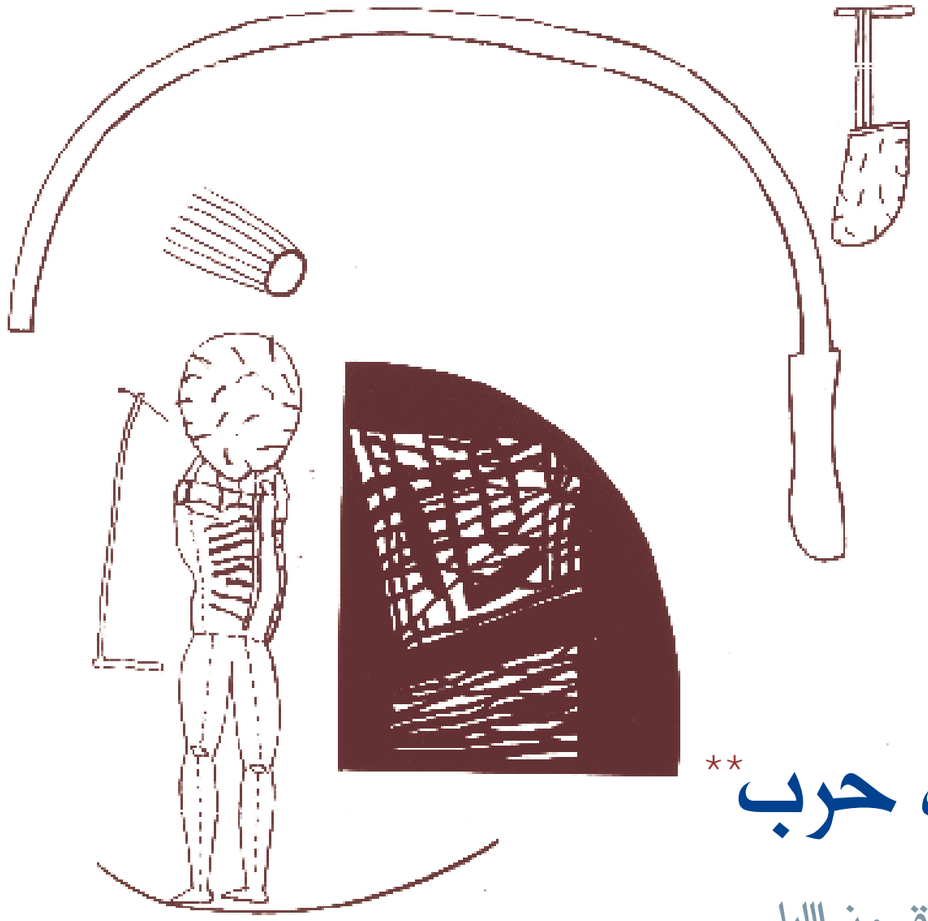

عبده وازن*

قصائد حرب**

في حفرة أعمق من الليل

كانت الجثث أكثر من التوابيت عندما جمعوها. لم يجدوا قبرًا. حفروا في الأرض ما يشبه الخندق الطويل. لم يكن الخندق عميقًا لكنه كان يكفي ليضم الأجساد المثقوبة بالشظايا. وضعوا في كل تابوت جثتين وربما أكثر. الموتى المجهولون لم يتذمروا عندما لفّوهم بالأوراق اللامعة وكتبوا عليها أرقامًا بدل الأسماء.

لم يكن هناك من أكفان. صلّوا عليهم ورموهم في الحفرة. لم يرفع أي ميت صوته. قد يكون الموتى غافلين عما يجري. لكنهم كانوا مطمئنين، عقبان السماء لن تنقض عليهم والذئاب لن تلتهم لحمهم.

كانوا مطمئنين، الليل سيضمهم وعظامهم ستزهر في التراب.

لقد وجدوا قبرًا ولو ضيقًا في هذه الأرض المنهوبة.

سقطة القبر لم تكن أليمة لأنهم كانوا كثيرين. تعانقوا وسقطوا معًا. ثم فتحوا عيونهم، كما تقول الكتب، ليبصروا ما لم يبصره أحد، ليسمعوا ما لم يسمعوه من قبل.

ولكن لم يدر أحد ماذا أبصروا وماذا سمعوا.

الذين دفنوهم لم يعتادوا حفر القبور. نفضوا التراب عن أيديهم ولم يسمعوا جلبة ولا صوت استغاثة. صلّوا عليهم وغادروا بسرعة.

في عزلتهم كان الموتى يشعلون شموعًا تشق أمامهم الطريق في تلك الحفرة التي أدركوا وحدهم أنها أعمق من الليل.

أولئك الذين قتلوا مرتين

كانوا يرفعون التوابيت على الأكف ويسيرون بهدوء في جنازة لم يُدع إليها أحد. عيونهم تحدّق في السماء، في أعماقها تبرق نار الخوف. عندما سقطت القذائف تفرّقوا، التوابيت وقعت على الأرض، والجثث تدحرجت على التراب.

لم ترحم القذائف الجثث الراقدة تحت شمس تموز، لكن الجثث لم تئن، وحدها رائحة الموت كانت تهبّ منها.

المشيّعون تواروا خلف الأشجار ولم يبق على الطريق سوى التوابيت المخلّعة وبقايا أناس قتلوا مرتين.

المخطوفون
ليسوا أحياء
لكنهم لم يموتوا
إنهم يحيون
في جهة من الليل
في عيون أمهاتهم
اللواتي يحدّقن
في السماء
كل ليلة.
إنهم الخط الأخير
للحرب التي عبرت
بقتلاها
وأسمالها
بالصرخات التي ما برحت
ترتفع.
كان عليهم
ألا يعودوا
لئلا تدخل الحرب
كتاب الذاكرة
لئلا يلتئم
الجرح السري
للأرض.

إنهم
الأخيرون
الذين لم يعودوا
يتركون زهرة غيابهم
على حافة النافذة
لا أحد يقول
إنهم ماتوا
في الحفر
أو وراء القضبان
في الغرف العفنة
أمهاتهم
يضئن شمعة
كل مساء
بأصابعهن اليابسة
مثلما فعلت
أم البحّار
في قصيدة
كفافيس.
إنهم المخطوفون
هكذا يسمّونهم
صورهم تدل عليهم
هم الذين لا يزالون

مثلما غابوا
بالأسود والأبيض
بالألوان الباهتة
لم يكبروا لحظة
وجوههم لم تتغضّن
وعيونهم تبرق بفرح!
إنهم المخطوفون
الذين قد يعودون
ولو متأخرين
في نوم أهلهم
بأحذية مهترئة
وندوب لم تمّحِ
بألم يشق ظهورهم!
ليسوا أحياء
لكنهم لم يموتوا
الحرب غالبًا ما تحتاج
إليهم
لتظل بلا نهاية
لتظل ستارتها
مثقوبة برصاص القدر

(*) كاتب لبناني

(**) نُشرت في جريدة الحياة في يوليو/تموز الماضي في الذكرى الأولى لحرب تموز 2006

عمان:

أب أردني يستعيد ولده بمساعدة اللجنة الدولية

وبعد حوالي سنتين من الانفصال، وتحت إشراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر، تم لم شمل أب أردني مع طفله الذي كان يعيش بصحبة والدته بالعراق.

فخلال السنتين الماضيتين كان الطفل **قصي** يعيش في بغداد مع والدته العراقية التي قضت في حادث تفجير قبل بضعة أشهر حيث تولت جدته رعايته بعد ذلك. وبالرغم من رغبة الأب في إحضار ابنه إلى الأردن إلا أنه لم يتمكن من القيام بذلك بنفسه بسبب العنف المتواصل في العراق. وبناء على طلب الأب وبالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر العراقي وبعد التنسيق مع السلطات الأردنية، قامت وكالة البحث في اللجنة الدولية للصليب الأحمر بتسهيل إعادة الطفل **قصي** على متن إحدى طائراتها التي حطت في مطار ماركا في الأول من يوليو/ تموز الماضي حيث استقبله والده يرافقه ممثل عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وبحسب موظف البحث في اللجنة الدولية **علي عبد الله** «تتعامل اللجنة الدولية للصليب الأحمر سنويا مع مئات الحالات المتعلقة بالعائلات المشتتة. وفي العام 2006 وحده، سجلت اللجنة أكثر من1500 طفل انفصلوا عن ذويهم حول العالم. وبعد تحديد أماكن ذويهم، تقوم اللجنة الدولية باتخاذ الترتيبات وتقديم المساعدة اللازمة لإعادة لم شمل حوالي 1080 طفلا بعائلاتهم».

صنعاء:

مساعدة النازحين في صعدة

أدت النزاعات المسلحة في اليمن إلى نزوح آلاف المدنيين إلى محافظة صعدة. وقد قدم فريق من اللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية الهلال الأحمر اليمني مساعدات لـ 38 ألفًا و340 لاجئًا لدعم إقامتهم الجديدة بعيدا عن منازلهم. وشملت المساعدات تقديم خيام وفرش وأغطية وبراميل مياه وصابون. ومن ناحية أخرى، نظمت اللجنة الدولية وصول المياه عبر صهاريج إلى تلك المناطق التي تفتقر لمياه الشرب النظيفة.

وبعد عدة أشهر من اللجوء ظهرت حاجات جديدة تمثلت في الحاجة إلى العناية الطبية. وقد بدأت اللجنة الدولية والهلال الأحمر اليمني بالتعاون مع وزارة الصحة اليمنية برنامجا للصحة الأولية في يونيو/حزيران الماضي مهمته الوقوف على احتياجات حوالي 30 ألف نازح من خلال خمس وحدات صحية متنقلة.

هذا وقد نظمت اللجنة الدولية بالتعاون مع وزارة الصحة في صنعاء دورة تدريبية حول القانون الدولي الإنساني لمدة خمسة أيام وشارك فيها حوالي 35 من المهنيين الذين يتعاطون في قضايا مرتبطة بالقانون الدولي الإنساني.

دمشق:

إغاثة اللاجئين في مخيم الوليد

منذ يناير/ كانون الثاني 2007 بدأت اللجنة الدولية للصليب الأحمر عمليات إغاثة للاجئين في مخيم الوليد الذي يقع داخل الأراضي العراقية على بعد كيلومترين من مجمع الحدود العراقية إذ يضم المخيم حوالي 1040 لاجئا وغالبيتهم فلسطينيون. وتركزت مهمة اللجنة الدولية على تقديم الدعم الطبي للمركز الصحي وللطبيب الموجود هناك ومتابعة أعمال التحديث والبناء الخاصة بالبنية التحتية وإنشاء وحدات مياه وصرف صحي، والقيام بالأعمال التحضيرية الخاصة ببناء مخيم جديد في مكان آخر ومتابعة الحالة العامة للاجئين والبدء بالأعمال التنظيمية للخدمات.

وتجري هذه المهمات بالتعاون مع منظمة الهلال الأحمر العربي السوري وبموافقة السلطات السورية.

دارفور:

تيسير عودة جنود سودانيين إلى وطنهم

أطلق في 18 و19 أبريل/نيسان سراح 94 جنديا من الجنود التابعين للقوات المسلحة السودانية في شرقي تشاد بعد احتجازهم من قبل إحدى جماعات المعارضة السودانية وأشرفت اللجنة الدولية للصليب الأحمر على إعادتهم إلى وطنهم في "الفاشر" في شمال دارفور.

هذا وقد جرت إعادة المحتجزين إلى السودان على متن طائرة تابعة للجنة الدولية حيث كان بصحبتهم أحد مندوبي اللجنة الدولية. وهم كانوا قد وقعوا في الأسر أثناء المعارك التي نشبت في شهر أكتوبر/تشرين الأول 2006 في «كرياري" خلال الأحداث الأخرى التي شهدها شمال دارفور.

وكان مندوبو اللجنة الدولية قد قاموا في وقت سابق بزيارة المحتجزين بغية الوقوف على أحوالهم في الاحتجاز وحالتهم الصحية وذلك وفقا لما يقضي به القانون الدولي الإنساني. وعُقدت عدة مقابلات سرية على انفراد معهم قبل المغادرة وذلك للتأكد من أنهم يعودون بكامل إرادتهم . وحال وصولهم إلى "الفاشر" جرى تسليمهم إلى القوات المسلحة السودانية.

الخليل:

توفير المياه لسكان قرية "الريحية"

بالتعاون مع السكان المحليين في الضفة الغربية تعمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر على توفير إمدادات الماء النقي إلى القرى دون انقطاع. وأنهت اللجنة الدولية في يونيو/حزيران الماضي العمل على خزان ماء جديد على مستوى البلدية وشبكة توزيع طولها سبعة كيلومترات في قرية "الريحية" الواقعة جنوب غرب مدينة الخليل. ولم تكن إمدادات المياه إلى القرية قبل بناء الخزان دائمة بسبب تغيرات في ضغط شبكة التوزيع. وفي الصيف، كان من الضروري توزيع المياه على القرى بالتناوب من أجل تأمين الاستمرار في إمدادها بالماء.

ويقول منسق اللجنة الدولية المعني بالماء والإسكان في الضفة الغربية، **غيرت دي فري**، "من **المتوقع أن يؤمن الخزان الجديد** إمدادات أفضل من الماء لسكان قرية "الريحية" البالغ عددهم أربعة آلاف نسمة بالإضافة إلى أن أنابيب النقل والتوزيع الجديدة ستحد من الخسائر التي تسبب فيها تسرب المياه من الشبكة القديمة".

ويشير عمدة القرية، **محمد الحلاق**، إلى أن خُمس المياه المستخدمة كانت تضيع إثر التسرب فتنقطع إمدادات الماء في الصيف لفترة قد تدوم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، مما كان يدفع السكان مرغمين على شراء الماء من الشاحنات من أجل ملء خزاناتهم الخاصة. وغالبًا ما كانت تشترك عائلتان أو ثلاث عائلات في تكاليف شراء الماء".

وكان نحو 60 من القرويين يعملون في إسرائيل سابقًا، إلا أن معظمهم فقد وظيفته منذ الانتفاضة الثانية. ويضيف العمدة: "إن ربع عدد العائلات تقريبًا لا يملك دخلًا في حين يعمل حوالي 15 أو 20 في المائة من السكان في الزراعة التي تتطلب توافر المياه أيضا. وهو ما يؤكده مهندس بلدة "تاقوا"، **نبيل صبيح**. يقول **صبيح**: "كنا نضيّع أكثر من ستة آلاف متر مكعب من الماء في الشهر الواحد بسبب تسرب المياه من الشبكة القديمة... وسنتمكن بفضل بناء الخزان الجديد وتصليح شبكة التوزيع من ضمان وجود ما يكفي من الضغط لتوفير الماء النقي لكل عائلة على مدار السنة".

بيروت:

اللجنة الدولية تبني خزان مياه وتنظم مؤتمرات

استكمالا لدورها في إعادة تأهيل البنى التحتية لشبكة المياه في جنوب لبنان التي تضررت بشكل كبير خلال حرب يوليو/تموز 2006، افتتحت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الثامن من أغسطس/آب الماضي خزان مياه بمساحة ألف متر مكعب في بلدة عيترون قرب مدينة بنت جبيل.ويستفيد من هذا الخزان حوالي 11 ألفًا و500 مواطن. وقد قامت اللجنة الدولية ببنائه بالتعاون مع مصلحة مياه لبنان الجنوبي لاستبدال خزانين صغيرين دمرهما القصف الإسرائيلي في حرب العام 2006.

كذلك نظمت اللجنة مؤتمرين عن الجراحة في الحرب حضرها 74 جراحا عاما من أربعين مستشفى لبنانيًا.

كما نظمت المؤتمر الرابع حول القانون الدولي للموظفين الحكوميين العرب بالتعاون مع جامعة الدول العربية ومركز الأبحاث القانونية في بيروت. وعقدت ورشة عمل لأفراد قوى الأمن الداخلي حول القانون الدولي الإنساني والقانون الجنائي الدولي ومحكمة الجنايات الدولية.

وأرسلت اللجنة ثلاثة طلاب حقوق للمشاركة في مسابقة "بيكتيت" حول القانون الدولي الإنساني التي انعقدت في مدريد في أبريل/ نيسان الماضي.

وداعًا جمال سي العربي

عرفت القاهرة الفنان الجزائري جمال سي العربي منذ العام 1992 حين جاء للاستقرار بها. وبمجرد أن سكن جمال تلك العاصمة، دخل معها في حديث ونقاش طويلين وحميمين، كأنما كانا (الفنان والمدينة) يستأنفان حديثًا حميمًا قديمًا انقطع للحظات قليلة.

علاقة جمال بالمدينة هي شهادة في صالح القاهرة المدينة الودود الرؤوم المرحّبة، كما هي شهادة على قدرة جمال سي العربي السحرية على المخالطة والنفاذ والاندماج. وقد عمل جمال في القاهرة رسامًا للشرائط المرسومة والكاريكاتور وكاتبًا ومترجمًا للأدب العربي إلى الفرنسية، وأنجز تراكمًا في الميادين التي عمل بها سيظل الكثيرون يذكرونه.

رسم جمال ألبومين من الشرائط المصورة («في حدائق الشيطان» و «طبول على ضفاف البحيرات») نشرتهما بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالقاهرة بالتعاون مع دار الشروق المصرية.

فاجأنا جمال سي العربي في مايو/أيار الماضي برحيله المبكر المفاجئ الذي لا نزال نعيش صدمته. وداعًا جمال.

طرابلس الغرب:

دورات تدريبية لضباط القوات المسلحة

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر للمرة الأولى سلسلة من الدورات التدريبية لضباط القوات المسلحة الليبية من الرتب العالية بين 9 و18 يونيو/حزيران 2007 في طرابلس الغرب.

وشملت هذه الدورات ضباطًا مسؤولين عن التدريب وقضاة عسكريين وأعضاء في النيابات العامة العسكرية بالإضافة إلى أساتذة وتلامذة ضباط ينتمون إلى مختلف المعاهد والكليات العسكرية.

وهدفت المرحلة الأولى من هذه الدورات إلى تعريف القانون الدولي الإنساني للمسؤولين عن إدماج ترتيبات هذا القانون على كل مستويات القوات المسلحة الليبية.

وقد وصف الشركاء الليبيون هذه التجربة الأولى بأنها كانت "ناجحة تماما" بفضل التنسيق الجيد من قبل اللجنة الوطنية الليبية للقانون الدولي الإنساني والإسهامات الإيجابية للمشاركين. ●●●

••• القاهرة:

دورة في القانون الدولي الإنساني للأكاديميين

قامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالتعاون مع المركز العربي للبحوث القانونية والقضائية أحد أجهزة جامعة الدول العربية بتنظيم الدورة الإقليمية الرابعة حول القانون الدولي الإنساني للأكاديميين العرب خلال الفترة من 18 إلى 28 يونيو/حزيران في القاهرة. وألقى الكلمات الافتتاحية لهذه الدورة كل من الدكتور **أحمد فتحي سرور** رئيس مجلس الشعب، رئيس الجمعية المصرية للقانون الجنائي، والدكتور **مفيد شهاب** وزير الدولة للشؤون القانونية والمجالس النيابية، رئيس الجمعية المصرية للقانون الدولي، والسيد **جيرارد بيترنييه** رئيس بعثة اللجنة الدولية بالقاهرة، والقاضي **عمر الناطور** مدير عام وزارة العدل اللبنانية، رئيس مجلس إدارة المركز العربي. وحضر أعمال هذه الدورة 33 مشاركا من 17 دولة عربية من بينهم خمسة عمداء لكليات حقوق. وألقى عدد من خبراء وأساتذة القانون الدولي الإنساني من العالم العربي ومن اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والمحكمة الجنائية الدولية، وجامعة جنيف سلسلة من المحاضرات وأداروا العديد من حلقات النقاش حول مختلف موضوعات القانون الدولي الإنساني.

محاضرون في الندوة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي حول الآثار البشرية للألغام الأرضية

الكويت:

علاقة القانون الإنساني بالشريعة الإسلامية

بالتعاون بين البعثة الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر لدول مجلس التعاون الخليجي والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت، أقيمت ندوة حول القانون الدولي الإنساني لمنتسبي الجمعيات الخيرية في الكويت.

حضر هذه الندوة حوالي 30 مشاركا يمثلون مختلف الجمعيات الخيرية في دولة الكويت بالإضافة إلى ممثل واحد عن إحدى الجمعيات في المملكة العربية السعودية. واستمرت هذه الندوة على مدى يومين متتاليين، وأدارها كل من مستشار شؤون العالم الإسلامي الدكتور **عامر الزمالي**، والمدير الإقليمي للإعلام **فؤاد بوابة**. وهدفت الندوة إلى التعريف بالقانون الدولي الإنساني وعلاقته بالشريعة الإسلامية، والتعريف بالأشخاص والأعيان المحمية، ونطاق تطبيق هذا القانون وآليات تطبيقه إضافة إلى علاقة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بهذا القانون والدور الذي تلعبه في حالات انتهاكات القانون الدولي الإنساني.

بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، استضافت الكويت "الندوة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي حول التعامل مع الآثار البشرية للألغام الأرضية المضادة للأفراد ومخلفات الحرب المتفجرة" في الحادي عشر من يونيو/ حزيران الماضي.

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

القاهرة: 31 شارع جدة، حي المهندسين، القاهرة 11412، ج.م.ع
هاتف: 37619332/33379282 (202++) فاكس: 37618487 (202++)
البريد الإلكتروني: cairo.cai@icrc.org

عمّان: دير غبار، حي الديار، شارع يوسف أبو شحوت صندوق بريد 9058 عمان 111191
هاتف: 5921472/4604300 (9626++) فاكس: 5921460 (9626++)
البريد الإلكتروني: amman.amm@icrc.org

بغداد: (بغداد) العلوية: ص.ب 3317
هاتف: 01922464 (79 964++) فاكس: 846262 (761 873++)
(عمان): ص.ب 9058 عمان 11191 الأردن
هاتف: 5523994 (6 962++) فاكس: 5523954 (6 962++)
البريد الإلكتروني: iraq.iqs@icrc.org

دمشق: أبو رمانة، ساحة الروضة، شارع مصر، بناء الجرد، الطابق الثالث صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/3339034(96311++) فاكس: 3310441 (96311++)
البريد الإلكتروني: damas.dam@icrc.org

الأراضي الفلسطينية المحتلة: شارع النبي شعيب رقم (8) منطقة الشيخ جراح، القدس 91202، صندوق بريد 20253
هاتف: 5828441/5828845/5828802 (9722++) فاكس: 5811375 (9722++)
البريد الإلكتروني: jerusalem.jer@icrc.org

بيروت: بناية منصور، شارع السادات، الحمرا، صندوق بريد 7188–11
هاتف: 739297/739298/739299(9611++) فاكس: 740087(9611++)
البريد الإلكتروني: beyrouth.bey@icrc.org

الخرطوم: شارع رقم 33 منزل رقم 16 العمارات الامتداد الجديد. صندوق بريد 1831
هاتف: 65/476464 (249183) ++ (خمس خطوط) فاكس: 467709 (249183) ++
البريد الإلكتروني: khartoum.kha@icrc.org

تونس: المندوبية الإقليمية بتونس، (تغطي أنشطتها: تونس – المغرب – ليبيا – موريتانيا – الصحراء الغربية) رواق البحيرة عمارة أ، نهج بحيرة كنستنس 1053 ضفاف البحيرة
هاتف: 960179/960154/960458 (21671++) فاكس: 960156 (21671++)
البريد الإلكتروني: tunis.tun@icrc.org

الجزائر: 18 نهج سويداني بوجمعة 16070. المرادية. الجزائر
هاتف: 80 28 2160 (213++) فاكس: 82 24 2148 (213++)

صنعاء: شارع بغداد، شارع رقم 19، منزل رقم 20 صندوق بريد: 2267
هاتف: 4/467873 / 44 38 21 (9671++) فاكس: 75 78 46 (9671++)
البريد الإلكتروني: sanaa.san@icrc.org

الكويت: البعثة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي (تغطي أنشطتها: الكويت، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين، سلطنة عمان) الجابرية، قطعة 5، شارع رقم 3، منزل رقم 32 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 5322061/5322062/5322098 (965++) فاكس: 5324598 (965++)
البريد الإلكتروني: koweit.kow@icrc.org

بعثة الصومال: Denis Pritt Road، صندوق بريد: 73226 – 00200 نيروبي، كينيا
هاتف: 5/4/3963 – 9/8/2713367 (25420++) فاكس: 13731 2027 254 ++
البريد الإلكتروني: somalia.sok@icrc.org

طهران: كميته بين المللي صليب سرخ، تهران – شارع أفريقا – شارع تابان شرقي – رقم 75
هاتف:4–5503 8878 21 98++ فاكس: 3370 8878 21 98++
البريد الإلكتروني: tehran.teh@icrc.org

موريتانيا: صندوق بريد: 5110، نواكشوط
هاتف: 38 447 52 222++ فاكس: 97 446 52 222++

جروح في شجر النخيل

لطالما شكلت الكتب الصادرة عن «اللجنة الدولية للصليب الأحمر» مراجع تركز على العمل الإنساني واحترام القانون الدولي. وفي حين يبدو إصدارها لكتاب «جروح في شجر النخيل»، في ظاهره، خروجًا على هذه العادة، إلا أنه في الواقع تأكيد جديد على الخط نفسه الذي انتهجته اللجنة، وإنما هذه المرة باعتماد الأدب وسيلة لنشر المبادئ الإنسانية.

فهذا الكتاب الذي صدر في أبريل/نيسان 2007 في بيروت عن دار رياض الريس يضمّ خمس عشرة قصة تحمل كل منها جانبًا من مأساة العراقيين ماضيًا وحاضرًا في علاقتهم مع الحرب والموت والحصار والاحتلال، كما في علاقتهم مع الحب والأمل وبحثهم الدائم عن مستقبل أفضل.

هي ليست قصصًا عادية بل شهادات عن تاريخ قريب ما زالت فصوله تكتب بدم العراقيين.

قدّم للكتاب الأديب اللبناني أمين معلوف، صاحب «سمرقند» و«صخرة طانيوس»، الآتي أيضًا من وطن مزقته الحروب والصراعات لسنوات طويلة وما زالت. قدّم معلوف لخمسة عشر كاتبًا عراقيًا... لخمس عشرة حياة سطّرت على أوراق هذا الكتاب. وتنشر «الإنساني» على الصفحات التالية في باب «بلا رتوش» واحدة من هذه القصص العراقية الجميلة برغم حزنها. •••

لنتوقف لحظة فنستعيد ذكريات العراق. ليس فقط عراق الحضارات القديمة، عراق سومر وحمورابي وجلجامش وبرج بابل وإبراهيم الخليل، عراق الجاحظ والمتنبي وأبي نواس وهارون الرشيد وبيت الحكمة وإخوان الصفا. لا، ليس فقط العراق الذي أضاء طفولة البشر وصباهم، بل العراق الأقرب إلينا بكثير، العراق الذي أضاء طفولتنا نحن وصبانا، عراق النهضة والتحديث، عراق الأدباء والملحنين والرسامين والنحاتين والبنائين. عراق الإنسان والكلمة.

الأهوال كادت تنسينا عراقنا الأحب. طُمر حيًا أمام أعيننا ولم نكترث. جُلد ومُزّق وأهرق دمه. راح ضحية الجميع بلا استثناء. ضحية الآباء والأبناء والأشقاء والأعداء وأعداء الأعداء. طُمر حيا أمام أعيننا وكل منا رمى على الضريح حفنة من تراب وتمتم نصف صلاة، ثم أدار ظهره وأسلم ضميره للنسيان.

وفجأة ترتفع من بين الأنقاض أصوات حية. فجأة تصعد من تحت الركام أصوات نبيلة ساخطة هي نبرات الأمل الصابر والبطولة الحقة والإيمان غير الملطخ.

فبربّكم، دعونا نسكت الإذاعات والشاشات المريعة، دعونا ننسى ما سمعناه اليوم وأمس وقبل أمس. دعونا نترك مشاغلنا لنجلس ساعتين ولحظة مع عراق الحياة، لعلنا ندرك أن شعلة البقاء، ولو خفتت، فإنها لم تنطفئ. لنجلس في خشوع مع كتّاب العراق. هنا الأدب يرتقي، مع كل صفحة، إلى معناه الأعمق والأسمى. هنا الأدب، في كل قصة، يجاور الموت بترفع ويصارع قوى الفناء ولا يكفر لحظة بالحياة، هنا الأدب يعيد إلى الإنسان قدسيته وإلى الإيمان براءته.

نفتح الكتاب، نقرأ، نصمت، ثم نقرأ ونقرأ. نغلق الكتاب، نتأمل طويلا، ثم نفتحه من جديد، نتصفحه، نقرأ ونقرأ ونقرأ. نبتسم ونبكي، ثم نضمه إلى صدرنا ونصرخ: عار على زمن يدعي النور وينشر في الأرض الظلام! عار على زمن يدعي الإيمان ولا يزرع في القلوب إلا الحقد والكفر! عار على زمن يحول المبادئ والقيم إلى أدوات للتسلط والقهر والتدمير!

عار على جيلنا إذا ترك الموت يخمد نبرات الحياة! ●

أمين معلوف

(*) أديب لبناني.

قبلة قبل الموت

أسماء محمد مصطفى *
الرسم : عمّار داوود **

إنه يوم ما،من العام ألفين وستة.
الوقت فجر..
× أستفيق من غيبوبتي اليومية وأنا أتصبب عرقًا ورأسي مصاب بالدوار.. أجد رجلًا بحلة مهيبة مستلقيًا إلى جانبي..
الكهرباء غائبة كالمعتاد.. وضجيج المولدات الكهربائية التي يشغلها الجيران يكاد يفطر جدار الغرفة وليس رأسي فقط..
وحده، هذا الرجل انهزمت حبات عرقه أمام شخيره..
ثمة صدى في الغرفة المخنوقة بالحر الصيفي الهالك يردد:
ـ شهرزاد.. شهرزاد...
لكنه قد يكون صدى أعماقي التائقة إلى المزيد من الحكايات
لست أذكر أنني كنت، من قبل، شهرزاد، ولم أعتقد، قط، أن شهرزاد لم تكمل حكايتها، ولم أظن أن لبغداد ليالي أخرى غير الليالي الألف، لكن صياح الديك عند الفجر ألغى كل تصوراتي واعتقاداتي وجعلني أدرك أن الرجل المستلقي إلى جانبي إنما هو شهريار..
لكن كيف أصبحنا نسكن في غرفة قديمة غير غرف القصور، وننام على غير الفراش الناعم؟!
اشعر بالخواء.. وحاجتي إلى الامتلاء بالحكايات.. لذا سأفتش عن حكايات جديدة في بغداد، أقصها على ملكي الذي ربما لم تكفه الليالي الألف ليتعلم الحب، وقد تكون به حاجة إلى ليال جديدة، ليكف عن قتل النساء.
سأبدأ رحلتي الآن، قدما مع الزمن أو عودة إلى الوراء قليلًا، واجمع حكايات الحب..

♦♦♦♦

انه الأربعاء ـ التاسع عشر من آذار من العام ألفين وثلاثة..
أنا أجلس الآن على أرجوحة معلقة بالقمر في سماء بغداد..
أصغي لأصوات العشاق، بحثًا عن الحكايات..
عند أحد الشبابيك المشرعة في وجه السماء تقف فتاة جميلة.. تهمس:
أنا وحبيبي معلقان بأهداب القمر، ننتظر مراسيم العرس يوم غد..
الخميس..
الخميس، عرف عنه يوما لإقامة حفلات الزفاف، أما اليوم، فقد تضمخت كفي بالحناء التي بدت كطائر صغير بارد دغدغ مشاعري.
أنظر إلى السماء من نافذة غرفتي التي سأودعها غدًا، بدمع الفراق، أسأل: أستكون لدي فرصة لأحظى بالعرس الذي حلمت به، وخططت له.. أم أن السحب السود ستمطر وتغرق أحلامي؟!
يأتيني حبيبي مسرعا، يطلب مني أن نشرع بحياة جديدة في بيتنا الصغير..

♦♦♦♦

ـ لكن أي زفاف نقيمه في هذا اليوم المر؟
ـ ربما المراسيم تتغير.. بيد أن الزفاف سيتم.. ليس أكثر من أن تضعي يدك في يدي، ونمضي معًا باتجاه المستقبل.

♦♦♦♦

أنصت إلى صوت قلبي، وارتديت ثوبي الأبيض، وتناغمت خطواتي مع خطوات عريسي نحو البيت الجديد الذي وجدناه يهتز من شدة القصف.
هذه حكاية غريبة، بطلاها أمل وحسن، العاشقان العراقيان اللذان لم يسمحا للحرب بمصادرة حلمهما في إتمام زفافهما والاستمتاع بإحساس الحب حتى لو جاء الموت بعده بلحظات..

♦♦♦♦

الحب يسعد الناس، وبه يتكاثر الفرح.. أما الحرب، فتؤلم.. وتقتل.. وبها يتناسل الحزن.
يأتيني صدى من كل مكان، يقول:
بالرغم من كل الحروب التي مرت بنا، واضعة عند عتبات أبوابنا أكفانا للأجساد والأحلام معًا، إلا أن الروح العراقية تحلق بتوهج وثقة أمام مرايا الأحلام التي تتناسل باستمرار.
إن أحد أشكال الفرح في المجتمع العراقي يتجسد بالأعراس. وقد اعتادت الشوارع العراقية، قبل الاحتلال، استقبال مواكب الأعراس.
ينزل إلى الشوارع المحتفلون، فيرقصون على وقع الموسيقى الشعبية الصاخبة، وعادة ما تتخلل الرقصات الجامحة والدبكات المتوارثة زغاريد النسوة.
كانت مراسيم الأعراس تبدأ عصرًا أو عند غروب الشمس، وتستمر حتى أوقات متأخرة من الليل، وأحيانا حتى الفجر.
بعض العرسان أقاموا أعراسهم في منازلهم أو حدائقها،
والبعض الآخر أقامها في نوادٍ وقاعات عامة مخصصة لحفلات الأعراس، وهذا وقف على القدرة المالية للعرسان.

يصمت الصدى، فأغوص في الزمن أكثر.. أصل إلى محطات بعض الأعوام السابقة للاحتلال الأمريكي للعراق..
أجد بعض الشباب يتوزعون بين الفضاءات المحيطة بالفنادق بانتظار مواكب الأعراس التي تحط عند تلك الفنادق، ليدقوا على دفوفهم ويرقصوا.. وقبلهم، أجد في الشوارع بعض الشباب من الباحثين عن الفرح يرقصون من أمكنتهم، إذا ما مر موكب زفاف، حتى إذا ما ابتعد الموكب ـ المؤلف من سيارة العروسين وسيارة الفرقة الموسيقية وسيارات أهل العروسين والضيوف ـ توقف ذلك البعض من الشباب عن الرقص ومضى في طريقه بعد أن يلقي بيده تحية على الموكب المبتهج.
انه جزء من طقوس المحبة العراقية للحياة بالرغم من ضغط الحروب والحصار الاقتصادي القاسي على العراقيين.

♦♦♦♦

العرائس، أجدهن، يظهرن بأبهى حلة، والزينة تعلو وجوههن ورؤوسهن فيمشين أشبه بالحمامات البيض المحلقة في دنيا الأحلام.
سعاد.. فاطمة.. ابتسام.. هناء.. أحلام.
عرائس يبدون كأنهن قطع كريستال تضيء في ليال الفرح، أو مثل أميرات قادمات من القصور المخملية.. لكن دوام الحال من المحال، فالأميرة الأسطورية النائمة ليست وحدها من وخزت إصبعها الناعم بمغزل الساحرة الشريرة الباغضة للحب والفرح والخير، إذ يبدو أن في العراق عددًا كبيرًا من الأميرات النائمات بانتظار فرسانهن الذين يطبعون على شفاههن قبلات ما قبل الموت..

♦♦♦♦

وفرح.. كانت تنتظر قبلتها، لكن عريسها اختفى وراء دخان الحرب.. القادمة!!

♦♦♦♦

انه العام ألفان وثلاثة..
و... أنا شهرزاد احلق في الفضاء الضاج بهدير الطائرات وصخب الموت والدمار الذي حطم العروس فرح، وسلبها حلمها الجميل حين أغرق المطر الأسود خطيبها..
بقيت فرح محتفظة بثوبها الأبيض حتى اليوم، ربما، لأن أميرها يزور مخيلتها ويطبع قبلة على جبينها القمحي الشامخ.

♦♦♦♦

في التاسع من نيسان بالتحديد..
الأميركيون يدخلون إلى بغداد وأخواتها من المدن العراقية، لا يستقبلهم العراقيون بالورود.. لكن حالة من الفوضى تعم بفعل انهيار الدولة والسلطة معًا، فتظهر موجة اختطاف.
العرائس يشعرن بالقلق والخوف من امتداد مخالب الاستلاب إليهن، وكذلك، يخشى العرسان على سلامتهن.
تودع الليالي صخب مراسيم الزفاف، وتحتضنه النهارات المليئة بالهواجس.. تشكو النوادي الليلية والقاعات العامة المخصصة للأعراس الهجر والنسيان.
ومع تفشي رعب السيارات المفخخة والعبوات الناسفة والمواجهات، لم تعد البيوت تعرف النوم الهانئ.. تصبح الأعراس مقتصرة على مراسيم بسيطة وضيوف محدودين.
العروس تذهب إلى صالون الحلاقة.. تجعلها أنامل الحلاقة أميرة لامعة، وما أن تطأ قدماها الصالون بقصد المغادرة حتى تضع على رأسها شالًا أسود، وتمشي بخطوات عجلي نحو سيارة تنتظرها، فإما أن يقام عرسها في المنزل، وأما أن ينصب لها مجلس عرس تحت الهواء الطلق في الحي الذي تسكنه أو يسكنه عريسها، حيث يغلق الطريق بالحواجز والأحجار الكبيرة، ويقف بعض الشباب من أهل العريس حاملين الأسلحة تحسبًا لأي طارئ يتطفل على العرس، ويغتال الفرح برصاصة غادرة أو عبوة ناسفة، مثلما اغتالت المخاوف فرح الشوارع، فما عاد يمر بها موكب عرس صاخب، أو يرقص على وقع موسيقاه عابرو السبيل قبل أن يبتعد الموكب عنهم، ويمضوا إلى طريقهم.
في كل الأحوال، ينعدم صوت الغناء وضجة الرقص خشية المتطرفين، إنما هناك بضع رصاصات تنطلق إلى السماء احتفاءً بالمناسبة، وهذه عادة شعبية شاعت كثيرًا بعد انتهاء الحرب من جراء "الحرية" المتوافرة للناس، لحيازة السلاح.

♦♦♦♦

لم تعد النجوم تراقب من بعيد مواكب الأعراس، لم يعد القمر يضيء ثوب العروس، لم يعد نسيم الشوارع الليلي يداعب أجساد المشاركين في موكب الزفاف، فقد كان يحلو لهم، قبل سنوات الاحتلال، أن يتركوا سياراتهم وينزلوا إلى الشارع، ليرقصوا بعض الوقت على أنغام الفرقة الموسيقية التي ترافقهم، ثم يعودون إلى السيارات ويستكملون طريقهم إلى الفندق أو عش الزوجية الجديد.
ويمكن أن يتكرر هذا المشهد الراقص أكثر من مرة خلال مسيرة الموكب.

♦♦♦♦

وإذ غاب عن القمر والنجوم والنسيم الليلي منظر المواكب، فإن الشمس وحدها، اليوم، تحتفل مع العرسان، فمن المشاهد التي باتت مألوفة بعد الحرب عام ألفين وثلاثة أن يمر موكب عرس بشوارع النهار، وقد بدا الموكب الأول الذي سار في ضوء النهار ـ الظهيرة ـ غريبًا للناس ومفاجئًا لهم، حتى جعل التكرار من هذا المشهد طقسًا معروفًا لدى العراقيين، ولا شك في أن مواكب الليل ستعود لمداعبة الشوارع إذا ما استتب الأمن في العراق.
وحتى ذلك الوقت يظل النهار حاضن الزغاريد.. وربما يكون النهار باكرًا جدًا، كما هو نهار زفاف أماني التي انطلق موكب زفافها الصغير عند الساعة السابعة من صباح يوم صيفي في إحدى مناطق كرخ بغداد الساخنة، نظرًا للظروف الأمنية غير المستقرة.
ونتيجة لهذه الظروف المتذبذبة استغنى بعض العرسان عن المواكب واكتفوا بإقامة حفلات عرس بسيطة في منازلهم تعبيرا عن استمرارية روح الفرح.. والأمل..

♦♦♦♦

•••

(*) أديبة وصحفية عراقية.
(**) فنان تشكيلي عراقي.

●●● أمل..... أمل..... أمل.....

يتردد الصدى في رأسي، فأشعر برغبة القيام بزيارة زمنية قصيرة إلى أمل وحسن، لا اعرف أين وصل فرح الحب بهما في هذا الزمن الصعب؟

ها.. إنه يوم ما من مطلع العام ألفين وخمسة... أنا أتعلق بشعاع القمر ثانية، يلقيني على عتبة باب بيتهما الذي كان يهتز يوم العرس بفعل القصف..

استرق السمع من الشباك المشرع لنور العصر والمزين بتفرعات النبات الأخضر المتسلق إلى أعلى،ومن ثم استرق النظر..

أرى أمل ترتدي ثوبًا فضفاضًا، وتلف رأسها بشال ثم تضع يدها في يد حسن وهما يهمان بمغادرة البيت..

في الشارع تخبر أمل زوجها برغبتها بالمشي بدلا من ركوب سيارة، فيسيران إلى غايتهما..

أتلصص على بوابة ذاكرتيهما..

بالأمس عندما لم تكن الشوارع تداس بالدبابات والهمرات وعندما لم يكن الرصاص ينطلق عشوائيًا، ولم تكن عصابات الاختطاف والابتزاز والقتل على الهوية وغير الهوية منتشرة، كان أمل وحسن يسيران بأمان، ولم يكن يخيفهما سوى احتمال نشوب حرب أخرى، ومع ذلك كانا يذهبان إلى المتنزه العام، ويمضيان أحلى الأوقات حتى المساء، ويعودان من غير أن يقلقا من احتمال حدوث مكروه، فإذا مر موكب زفاف بالشارع الذي يقطعانه، نظر أحدهما إلى الآخر متخيلًا نفسه برداء الفرح وهو يمسك بذراع شريكه..

حين وضعت أمل خاتم الخطوبة في بنصرها الأيمن، طافت بمخيلتها عشرات الأحلام، ومثلها فعل حسن... كيف يكون البيت الجديد؟

كيف يكون شكل ثوبي والبرقع الأبيضين؟

لو رميت بباقة الورد إلى الحاضرات مَن من صديقاتي وقريباتي العازبات ستحصل عليها، فيملؤها التفاؤل بأنها ستلحق بقطار الحب والاستقرار؟

وكم طفلًا سيملأ بيتي بالصراخ والضجيج المستلب؟

♦♦♦♦

هذه المرأة التي اخترتها شريكة لما تبقى من العمر..

هل ستعيش معي في سعادة دائمة؟

هل سنكون معًا على الدرب الممتد إلى المستقبل؟

.... أول مولود... اهو ولد أم بنت؟

لا أعترض على جنس المولود.. المهم أن يكون لدي طفل من حبيبتي.

ستكون في يوم عرسها.. أجمل من القمر، بل هي في كل وقت أجمل منه، أليس كذلك؟

أتكون حياتنا القابلة هادئة ومستقرة أم تطرق ريح الشتاء بابنا؟

أأنا قلق من احتمال نشوب حرب، كالحروب السابقة، تسرقني من أحضان حبيبتي، وتلقيني إلى قعر العذاب..؟

♦♦♦♦

أعود معهما من إبحار الذاكرة أصل معهما أيضا، إلى حفل الزفاف الذي يقصدان.. وحينما ترى أمل العروس المتحمس، تخطفها الذاكرة ثانية، وتلقيها على شواطئ عرسها الذي خلا من المراسيم، واختفى عنه صوت الموسيقى، وعلا ضجيج الطائرات والمدافع، كأنه صوت النواقيس التي تنذر بالخطر..

♦♦♦♦

يسألها حسن عندما يجدها تتأمل العروسين المحاطين بالمحتفين:

ـ أأنت نادمة، لأنك لم تحظي بعرس ولو بسيط؟

ـ بل أكون نادمة، لو أنني أصررت على إقامة العرس في يوم غير ذلك اليوم، لقد كان زفافنا الصامت تحديًا لإرادة القتل.. زفافنا ذاك هو ذكرى فريدة تخصنا وحدنا، أنا وأنت..

♦♦♦♦

بينما يهم الحبيبان بالمغادرة تنطلق سحابة دخان مرعبة من فوهة بركانية، تقذف الريح السوداء العروسين وضيوف الحفل البسيط هنا وهناك.

يكاد الدخان يخنق أنفاس أمل.. لا تشعر بشيء، حتى تفتح عينيها اللوزيتين وهي راقدة على سرير في مستشفى..

سلامات..

تلك أول كلمة تتناهى إلى سمعها..

تحدق في وجه حسن، ووجوه أمها وأبيها وأخواتها وأهل زوجها الذين يحيطون بها، وسرعان ما تسأل بصوت مرتعش:

ـ ماذا عن الطفل؟

ـ الجنين بخير..

ـ هو.. لم يمت؟!

ـ كلا.. ما زال ينبض في أعماقك.. هو.. بسبع أرواح، مثلي.. لم يصبني الانفجار سوى ببضع كدمات في قدمي وذراعي من جراء السقوط على الأرض..

♦♦♦♦

أرافق أمل رحلتها مع الحمل، ومنذ شهورها الأولى، بعد أن وقع حادث انفجار عبوة ناسفة على مقربة من عرس قريبتها التي تلطخ ثوبها الأبيض برماد الموت، ولم تحظ بقبلة الأمير..

تشعر أمل بالتعب، إذ يثقل جسمها يومًا بعد آخر، مثلما تثقل ذاكرتها بضجيج القصف. يوم عرسها، وضجيج الانفجار يوم عرس قريبتها..

ترى خيال العروس الشهيدة يراقص خيال الأمير الجميل في الفضاء اللامتناهي..

تضع أمل يدها على بطنها المنتفخة وتشعر بالقلق والخوف وحين تحس بأعراض الوضع تطلق للفضاء صرخة تصيب القمر الجميل بالهلع.

♦♦♦♦

لا تزال أمل تغط في غيبوبتها على سرير في مستشفى الولادة، تخرج من أعماقها النائمة عشرات الكلمات المبعثرة كأنها تعرض للمتحلقين حولها من الأهل والأحبة لعبة الكلمات المتقاطعة.

ـ دخان.. ورد.. ثوب أبيض.. رصاصة.. طفل.. انفجار.. حسن.. بغداد.. جثث.. حرب... حرب... حرب...

♦♦♦♦

تفتح أمل عينيها بتثاقل وتسأل عن مصير الطفل يقولون لها انه في صالة العناية بالأطفال حديثي الولادة.

♦♦♦♦

بمحبة أخذت أمل طفلتها الأنثى بين ذراعيها بمحبة وشوق عارمين، تدرك سر تلك النظرات المشوبة بالحزن التي أطلقتها عيون الأهل حولها.

عندئذ تستقر دمعة حسن المتوارية وراء العين، على خد أمل الشاحب.

الطفلة مشلولة.. هذه هي الصدمة التي أسكتت أمل عن الكلام.. ومعانقة الحلم..

لن تحظى بثوب أبيض لماع. ستكون عاجزة عن الرقص كما الأميرة النائمة رقصت بعدما قبلها الأمير قبلة الحياة الأولى..

ستكون ابنتي أميرة نائمة على مدى العصور.. ولن يصل الأمير إليها،

إلا بمعجزة إلهية.

تنتظر امل وحسن وصول المعجزة إلى سرير ابنتهما النائمة؟

ثمة خيط رفيع جدًا من الأمل يظل في قلب المرأة أمل..

احتمال أن تغادر هذه الحياة خلال سنوات قليلة قادمة.

يعتصر الألم قلب الوالدين.. تبكي أمل، لأنها لن تكون يوما ما تلك الأم التي تطلق الدمع حزنًا على فراق ابنتها وهي تزف لعريسها.

ويبكي حسن،لأنه لن يرى ابنته تمشي إلى جانبه، ولو في رفقة قصيرة إلى المقهى الذي اعتاد الذهاب إليه لرؤية أصدقائه كلما تسنى له ذلك..

وأبكي.. أنا.. شهرزاد، حين أرى عروسي الأمس القريب يشيخان في أعماقهما سريعا بفعل الحزن لكنهما يظهران مبتسمين مبتهجين بالحياة أمام الطفلة الجميلة التي تنمو بإرادتهما يوما بعد آخر.

عندما أشكو القمر حال تلك الطفلة، ألمح في وجهه خيال ثوب صنعه بنفسه من خيوطه الفضية.

يقول لي:

ـ سيكون رداء عرس تلك الطفلة وديعة عندي حتى يأذن القدر..

أشعر بالامتنان للقمر الذي لا يملك الجمال فقط وإنما ينبض بالحب أيضًا..

أتراه ولد محبًا ام اكتسب الحب من مراقبة العشاق في زمن الحرب يتسامرون ويتهامسون في سهوله وتحت أضوائه؟

♦♦♦♦

لبعض الوقت اودع امل وحسن والطفلة الشاردة في أحضان زمن غادر تشبع برائحة الأدخنة والقنابل..

قبل ان أواصل مراسيم الوداع في مخيلتي، وقبل ان امسك بشعاع من القمر كيما أعود إلى ملكي، أسال نفسي:

كم طفلاً في العراق ولد معوقًا، مشوهًا، محروما من حق التمتع بالحياة، والعيش كما يعيش الأشخاص الطبيعيون،وتكوين أسرة وبناء بيت؟

كم طفلة عراقية لن ترتدي ثوب العرس السحري، ولن يأتيها أمير الحب، ولن ترقص تحت ضوء القمر؟

كم من طفل وطفلة لن يصلوا حتى إلى سن الشباب، بعد أن يعيشوا طفولة متعبة ومحرومة وخالية من صخب الصغار في أثناء اللعب والركض وراء مخيلاتهم التي تكبر أجسادهم بعشرات أمثالها؟

وكم من امرأة رسمت على طريق الفرح حلمها بأن تكون أمًا صالحة وحنونًا، وتخطو بأطفالها إلى المستقبل بخطىً مدروسة وسليمة اصطدمت بواقع مرير ما كانت تحسب له حسابًا أو يخطر لها في البال؟

وكم من رجل قال لنفسه وهو ينقل خاتم الرباط الأبدي من البنصر الأيمن إلى الأيسر إنه امتلك الدنيا كلها.. وغدًا يكون له أطفال يلعب معهم ويخطط لمستقبلهم، فإذا بالغد أشبه بطائر اللقلق يجلب بمنقاره طفلًا من أفق أخر بعيد، لكن الطفل لم يولد عاريًا، بل متشحا برداء المرض أو العجز اللعين؟

أسئلتي كثيرة.. الأجوبة بعيدة عني.. وحدها صور الأطفال، ثمار الأعراس اللذيذة، تتحلق حول رأسي معلنة الوجهين المؤلمين للحياة: الحب والحرب.. إرادة الخير والسلام وإرادة الشر والعنف والقتل..

إرادة الشر هذه صنعت للدم سرطانات، وللوجه تشوهات، وللقدمين مصيرًا مشلولًا، وللقلب غدًا مجهولًا.

ما ذنب الملاك الصغير حين يكون ضحية لحروب الشياطين؟

ما ذنب امرأة ورجل، عاشقين عانقا حلم الفرح ذات ليلة صاخبة بالموسيقى والدبكات أو ذات صباح مرتعد، أو ذات ظهيرة قلقة، لتخرج من رحم الحلم ثمرة يابسة، لأن الحرب تمنع الغيث عن النبت الطيب، ولا تسمح لمواكب الحب أن تحصل على حصة كاملة من الفرح..

♦♦♦♦

وفي زمن كهذا، الذي يثقل علينا بغيمات المطر الأسود والوجع الأحلك، ربما لم يعد ثمة متسع للفرح الأعمق.. حتى لو تسنى لي أن أتصور الفرح مخلوقًا من لحم ودم، لكان مجرد جثة مقطوعة الرأس ملقاة على قارعة الطريق..

لا أعرف أين سمعت هذا الكلام الباكي المبكي، لكنني أعرف بالتأكيد أن الشعب العراقي شعب يعشق الحياة ويستمر، كاللغة الحية، ليتجاوز آلامه وهمومه، ويبتكر أشكالا للبهجة، إذ إنه شعب مؤمن بأن للحزن وقته وطقوسه، وللفرح وقته وطقوسه أيضا.

وإذا ضاعت على بعض الفتيات فرصة ارتداء الثوب الأبيض بفعل الحروب المتتالية والعواصف القاسية، فإن ثمة فساتين بيضا تنتظر أميرات الفرح المؤجل، وثمة قبلات ستطبع على الشفاه، لينبلج ضوء آخر يحتفي بالحياة.

هذا شيء مما في جعبتي من حكايات هذا الزمن العجيب، أعود بها من رحلتي.. إلى شهريار.. أجده يواصل النوم بالرغم من استمرار انقطاع التيار الكهربائي.

أرتدي ثوبًا أبيض مرصعًا بالنجوم الفضية، وأضع على رأسي شالًا أبيض لماعًا هو الآخر، وأسأل نفسي.. كيف يكون رد فعل شهريار عندما يجد عندي المزيد من الحكايات.. أطبع قبلة على شفتيه..

انهض يا مولاي..

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد أن.... ●

مطبوعات وأفلام باللغة العربية

صدر عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر في القاهرة دليل يحتوي على لائحة بكل مطبوعات وأفلام اللجنة الصادرة باللغة العربية. وينقسم الدليل إلى قسمين: قسم المطبوعات وقسم الأفلام. ويشكل هذا الدليل وسيلة مهمة للاطلاع على كافة إصدارات اللجنة تبعا لعناوين المواضيع التي تتناولها سواء أكانت حول اللجنة الدولية نفسها أو الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر أو القانون الدولي الإنساني أو الحماية والوقاية. كما يضاف إليها في قسم الأفلام أجزاء عن العمل الميداني. ويقدم الكتيب نبذة عن المشروعات التي مازالت تحت التنفيذ.

مجلة "حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر"

تحديات التغيير المناخي؛ العنف في الصومال؛ سكان السويد المتوارون؛ الشريعة الإسلامية واتفاقيات جنيف هي بعض من عناوين العدد الأول من مجلة "حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر" لسنة 2007. ويتناول هذا العدد مشكلة الاحتباس الحراري وتأثيراته على فقراء العالم لجهة الكوارث الطبيعية والمشاكل الاقتصادية التي يسببها مع شرح لآليات المساعدة التي تستخدمها حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر من أجل مواجهة هذه التحديات. كما يتناول أحد مواضيع العدد معايير الرعاية المجتمعية التي حددها المتطوعون في زيمبابوي للمتعايشين مع نقص المناعة المكتسبة. ولا تقتصر المشاكل الاجتماعية على الدول النامية إذ يتناول موضوع الرعاية الصحية للمتوارين مشكلة آلاف من الناس في السويد لا يستطيعون الحصول إلا على القليل من الرعاية الصحية في وقت يعتبر نظام الرفاه الاجتماعي السخي في السويد مدعاة حسد من قبل العديد من البلدان. ومن جورجيا تتحدث ثلاث نساء عن معاناتهن بسبب النزوح والحرب. إلى ذلك يقدم العدد جولة في متحف الصليب الأحمر والهلال الأحمر في جنيف الذي يضم أغراضا صنعها سجناء ومحتجزون، ومقتنيات ذات قيمة تاريخية ووثائق تستذكر تاريخ أول منظمة إنسانية في العالم.

النازحون داخل بلادهم

يشكل النازحون داخل بلادهم حالة خاصة من النزوح يجعلهم خارج غطاء القانون الدولي الإنساني. والنازحون داخل بلادهم هم بحسب تعريف الأمم المتحدة: "الأشخاص أو مجموعات الأشخاص الذين أجبروا أو اضطروا للهرب أو ترك ديارهم أو أماكن إقامتهم المعتادة،، وبخاصة كنتيجة لنزاع مسلح أو حالات عنف عام أو انتهاكات لحقوق الانسان...لكنهم لم يعبروا الحدود الدولية المعروفة للدولة." وقد صدرت الطبعة العربية من كتاب "النازحون داخل بلدانهم" في يوليو/تموز 2007 عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر. يقدم الكتاب صورة عن الوضع القانوني لهؤلاء والذي يختلف عن وضع اللاجئين. كما يعرض لاحتياجاتهم ولأهم الأخطار التي تواجههم داخل دولهم. هذا بالإضافة إلى عرض لدور اللجنة الدولية للصليب الأحمر والجمعيات الوطنية للصليب والهلال الأحمر في إغاثتهم.

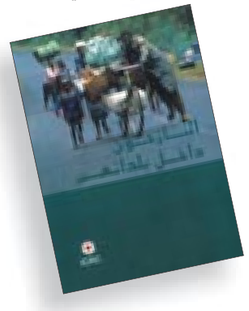

شارات الإنسانية

وفرت شارتا الصليب الأحمر والهلال الأحمر منذ تبنيهما الحماية للملايين من ضحايا الحرب إلا أنهما كانتا محل جدال مستمر أيضا. تستعرض هذه النشرة تاريخ الشارة واستخداماتها، بالإضافة إلي عرض أهم أحكام البروتوكول الإضافي الثالث الخاص باعتماد شارة الكريستالة (البلورة) الحمراء، شارة إضافية جديدة إلى جانب شارتي الصليب الأحمر والهلال الأحمر.

اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

يتناول هذا الكتيب نبذة سريعة عن أنشطة اللجنة الدولية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا موضحًا أهم المساعدات التي تقدمها لضحايا العمليات العدائية الدائرة والمتكررة، مع عناوين البعثات في المنطقة ووسائل الاتصال بها.

Contents

• **Special File: The Tragedy of Nahr el-Bared Camp-Lebanon**
On the 20th of last May, fighting erupted between "Fateh al-Islam" group and the Lebanese Army in Nahr el-Bared camp in Northern Lebanon. Consequently, thousands of civilians fled into the neighboring "Beddawi" camp and some other Palestinian camps.

• **Pains of migrating.. dreams of returning** By: **Samar Al-Kadi** - ICRC Communications Officer, Beirut
Once again, Palestinians find themselves refugees after their first displacement from Palestinian villages and cities in 1948. This time they are being displaced from one refugee camp to another. Some of the Palestinians tell us the story of their second displacement and repeated tragedy.

• **Two LRCS Relief Workers Give their Lives to the Service of Man** By: **Ayad al-Monzer,** LRCS Communication Officer.
On the 11th of June, Boulos Meamary and Haitham Suleiman, two young LRCS relief workers, were killed while working on the borders of Nahr el-Bared Camp. They are thus added to the list of martyrs who gave their lives for duty and humanitarian work.

• **Nahr el-Bared's Socio-Economic Role** By: **Michael Romig** - Swiss Researcher in Middle East History and Development Studies
Unlike the majority of Palestinian refugee camps, Nahr el-Bared Camp in Northern Lebanon is a unique case because of the social links established between its Palestinian inhabitants and the Lebanese population in the Akkar region. Economically, the camp had also become a central commercial hub for the region. To what extent the eruption of hostilities will affect these economic and social relations? The future of the camp is hard to predict.

• **The ICRC Alleviates the Suffering of the internally displaced** By: **Samar Al-Kadi**
In cooperation with its partners, namely the Lebanese Red Cross (LRCS) and the Palestinian Red Crescent (PRCS) societies, the ICRC has provided medical and humanitarian assistance to refugees and evacuated sick and dead persons since the very first days of the conflict.

• **Gaza: A Huge Prison Concealing a Humanitarian Crisis**
Review of the situation in Gaza under isolation and internal fighting

• **Contamplating from Gaza: Fear, Pride and the fight club** By: **Heba** – A Palestinian women's rights activist
In an attempt to shed more light on the humanitarian situation in Gaza, "Al-Insani" publishes some excerpts taken from Heba's blog "Contemplating from Gaza" between May and August 2007.

• **From now on, you are someone else!** By: **Mahmoud Darwish** – Palestinian poet
Darwish wrote this article in response to the internal fighting witnessed in Gaza last June.

• **The story of three crossing points, and the tragedy of waiting** By: **Ziad Abu Laban,** ICRC delegate in Cairo
Rafah crossing is the only point where the people of Gaza can have access to Egypt and other Arab countries. However, its repeated closure results in humanitarian crises for the Palestinians who are so often trapped on the Egyptian side, unable to return home.

• **A Simple Dream one Year after a Dramatic War** By: **Jihad Bazzi** – a Lebanese journalist

• **Prince Mer'ed Al Hussein: Many challenges for Arab countries in the fields of mines, and a call to join the Ottawa Convention**
interview By: **Rabab Al-Rifai,** Media officer at the ICRC in Amman
Prince, Mer'ed Al Hussein, the appointed president of the 8th meeting of the state parties to the Convention prohibiting mines (Ottawa convention), due to take place next November in Jordan, and Board Director of the Jordanian Organization for Mine Clearing and Rehabilitation, is interviewed by Al-Insani on the challenges facing Arab countries in the field of mines.

• **Press Violations: a Need for a Strong Enforceable International Response** By: **Daoud Kuttab** – Editor of the Arabic version of "Crimes of War"
The kidnapping of the BBC journalist in Gaza, Alan Johnston, is one of a series of kidnapping and killing operations committed against journalists in various areas of conflict all over the world. However, the happy ending of this incident, i.e. his release on the 4th of July 2007, has shed light on the many other sad endings of other journalists, and led to the demand that an international law be enacted for their protection.

• **Suddenly you are free but don't seem to fit** By: **Brian Keenan**, former hostage in Lebanon

• **Thirty years and the law of war stands the test of time** By: **Philip Spoerri** – Director of the International law Department at the ICRC
Thirty years have passed since the adoption of the first and second Protocols Additional to the 1949 Geneva Conventions. The two protocols have been a great reference in the development of how wars should be fought. They laid down a foundation for the protection of civilians during armed conflicts.

• **40 Issues on the Way to Maturity** By: **Tamara Al-Rifai,** Al-Insani staff
"Al-Insani" is celebrating its 40th issue, by reviewing its evolution through the events of the past 9 years

• **The Environment: an Ignition Agent for Future Wars?** By: **Zeinab Ghosn,** Al-Insani staff
While focus has been made over the past few years on the impact that armed conflicts have had on the environment, or the so-called post-conflict environmental assessment, some argue today that the world "climate change" and its reflection on the environment is becoming a fundamental cause behind the eruption of many conflicts.

• **Social – Economic Fabric as a Trigger for the Conflict in Darfur** By: **Abdallah Adam Khater** – Sudanese writer and Journalist
This article addresses the social and economic background governing the relationship between various tribes which make the social fabric of the Darfur region. It also delves into the tribal roots of the conflict, knowing that it is often these same roots that preserve social coherence, and that they can help the region restore its balance when the conflict ends.

• **The Role of Images in Establishing a New Mythology of Death** By: **El-Hady Khélil** – Professor of Literature and Cinema, University of Tunis
In this era, history has become a TV story written by those who own broadcasting sets. Recording history is no longer written by historians alone. Today, anyone with a camera is capable of producing images that contribute to shaping awareness of historical events. This is true with the gradual transformation of the collective memory into visual memory.

• **Nassir Chamma: telling the griefs of Iraq with music** interview By: **Zeinab Ghosn,** Al-Insani staff

• **Crimes of war: Review of the second edition** By: **Kim Gordon-Bates** and **Raja Shehada**

• **War Poems** By: **Abdo Wazen**

• **Around the world**

• **Wounds in the Palm Groves** Introduced by: **Amin Maalouf**

• **Without Retouches : A Kiss before Dying** By: **Asmaa Mohamad Mostafa,** Iraqi journalist and writer

• **Publications**

Editorial

A world of mixed concepts

Another hot summer stormed through the Middle East from Palestine to Iraq and over Lebanon, as if the peoples of the region were destined never to sit idles on a beach.

One year has elapsed since the hot summer that shook Lebanon in 2006…

Another hard year on the Palestinians…

Violence in Iraq has reached unprecedented levels... leading to what is seen as the biggest displacement of population since the Naqba in 1948.

And the people of Darfur wonder what more to expect....

However, in the middle of explosions, fire, and kidnapping, the Iraqi National Football Team was able to win the Asian football championship. In fact, the team is a champion by all means. A champion for surpassing the conditions of its country, and bringing hope for a normal life to Iraqis, a life where they can play football. It is a champion for realizing this dream. And it is a multi-confessional team, representing the people of Iraq.

What is the problem, we wonder, in having children play on the street, and go to school, and in allowing patients to receive treatment, even in a country under fire? Haven't the laws, customs, ethics, and even religions instructed us to keep wars away from everyday life?

However, when 70% of the Iraqis have no access to clean water, and 30% of their children are malnourished, how can we expect them to play football on the street? They are not even able to venture out for fear of losing their lives. A report issued by OXFAM, in cooperation with Iraqi NGOs, raised, once again, the question of "who protects the Iraqis?"

What a world of mixed concepts, a world where politicians and warlords have anymore shame when they decide the fates of people! What a world where talking, debates, suggestions, and initiatives, even when held in good intention, rarely make a difference. Everything happens in the name of the Nation, the People, and their Rights. Nevertheless, where are these rights when an old man lingers at the Egyptian border of Rafah, with only one concern: to survive the moment in order to die in his home in Gaza, and be buried under the olive tree? What does politics offer to an Iraqi teacher clinging to his duty in a country where 92% of schoolchildren have learning difficulties?

What a world of abundant information, but a world where journalists, who circulate the news are no longer valued. A report by Reporters without Borders (RSF) said that 2006 was the worst year for journalists since 1994, the year of the Genocide in Rwanda. In addition to the killing of 81 journalists in 2006, (most of them while on duty in crisis areas) over 30 media assistants (translators, drivers, etc.) were also killed the same year.

Another summer where we, at the International Committee of the Red Cross, raise the usual questions: what will the coming year be like? What are the priorities we should set in our annual plan? The ICRC has been working in the Middle East without interruption for forty years. It has continued and increased its activities, unfortunately, year after year. As much as we are proud of our organization, and of the supreme law governing its work, i.e. International Humanitarian Law, we however wish we could reduce the level of our presence, and diminish our operations in the region. For such a reduction can only mean that the situation is getting better in the region, and that people's need for humanitarian organizations is decreasing. However, we are afraid that the reduction in the number of humanitarian workers in the region will rather indicate an increase in the dangers they now face, and not the opposite. The most recent incident of the Korean relief workers in Afghanistan may serve as an example, a sad one, in this regard.

The summer is hot, and seems to announce a hot autumn too. However, the civilians, including journalists and relief workers, are attached to their lives and committed to their duties despite the flagrant violations of many of their rights.

"Al-Insani"